٩٨/١٩
١١
١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

عميد كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

الرسالة في العصر المملوكي الثاني بمصر والشام

٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ

١٣٨٢م - ١٥١٧م

إعداد

إدريس بن عبدالله

إشراف

الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ - ١٧ أيار ١٩٩٨

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي/ رئيسا	.....
الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن/ عضوا	.....
الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين/عضوا	.....
الأستاذ الدكتور يوسف بكار/ عضوا	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى والدي الذي علمني معنى الحياة.

إلى أمي التي علمتني الصبر ، فصبرت.

إلى شريكة حياتي ... صبرية ، التي شاطرتني مشاق الدراسة ، وقسوة الغربة ، وتحملت معي مر الحياة وحلوها.

وإلى زهرتي حياتنا أحمد وفاطمة الزهرة اللذين تعلما معنا أبجدية العربية ، وأبجدية الحياة...

إليهم جميعا أهدي ثمرة عملي المتواضع

إدريس بن عبدالله

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل ، والامتنان العظيم إلى أستاذي الكريم الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي لإشرافه على هذه الرسالة ، وأقدر له ما بذل من جهد وصبر لتصحيحها إذ كانت مليئة بالأخطاء، لغويا ، وأسلوبيا ، وفنيا. فلولا حبه العميق للّغة العربية ، إلى جانب حبه للطلاب ، وخصوصا الطلاب الأجانب ، ما كانت هذه الرسالة على صورتها هذه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار نتيجة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
ملخص باللغة العربية	ط
التمهيد : مفهوم الرسالة وتطوره	٢
الفصل الأول : الرسالة الديوانية	
لفظة الديوان ومدلولها	٩
ديوان الإنشاء : تطوره وأهميته ووظائفه	١١
الرسالة الديوانية والحياة السياسية	٢٣
الرسالة الديوانية والحياة الدينية	٣٥
الرسالة الديوانية والحياة الاجتماعية	٤٥
الرسالة الديوانية والحياة الثقافية	٥٤
الفصل الثاني : الرسالة الإخوانية	٦٠
الشكر والتهاني	٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعازي ٦٦

الشكوى والعتاب ٦٩

الاعتذار ٧١

الهدايا ٧٣

الشفاعات ٧٤

الفصل الثالث : الرسالة الأدبية ٧٧

الطرديات ٧٩

وصف النكبات ٨٢

رسائل المجون ٨٥

المفاخرات والمناظرات ٨٨

النقد والتهكم ٩٢

الفصل الرابع : الدراسة الفنية

بناء الرسالة ٩٦

الأسلوب :

* الألفاظ والمعاني ١٠٥

* أثر القرآن الكريم والحديث الشريف ١١١

* أثر التراث الأدبي السالف ١١٨

* الصنعة ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصورة الأدبية ١٣٦

الفصل الخامس : أبرز الكتاب في العصر المملوكي الثاني ١٤٢

أبو العباس القلقشندي :

* اسمه ولقبه ١٤٣

* حياته وثقافته ١٤٤

* أشهر مؤلفاته ١٤٦

* أسلوبه ١٥٢

ابن حجة الحموي :

* اسمه ولقبه ١٥٥

* حياته ١٥٦

* ثقافته ١٥٨

* أشهر مؤلفاته ١٦٠

* أسلوبه ١٦٢

شمس الدين النواجي :

* اسمه ولقبه ١٦٥

* حياته ١٦٥

* ثقافته ١٦٧

* وفاته ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* مؤلفاته ١٦٩

* منهجه في الكتابة ١٧١

السيوطي :

* اسمه ولقبه ١٧٣

* حياته وثقافته ١٧٤

* مؤلفاته ١٧٨

* أسلوبه ١٨٣

* منهج كتابته اللغوية ١٨٥

الخاتمة ١٨٩

المصادر والمراجع ١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

الرسالة في العصر المملوكي الثاني بمصر والشام

٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ

١٣٨٢م-١٥١٧م

إعداد: إدريس بن عبدالله

إشراف: الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

الحمد لله الذي شرفنا بنعمة الإسلام ، وهدانا إلى الإيمان ، وجعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وجعل التفاضل بينهم بالتقوى ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان آية من آياته ، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين الذي بعثه الله من بين العرب للناس أجمعين ، فكان ذلك شرفا للعرب المسلمين وخيرا للناس أجمعين ، فأدى الرسول الأمانة ، وبلغ رسالة ربه القرآن الكريم الذي أنزله الله بلغة العرب وجعلها لغة الإسلام .

أما بعد : فإن اللغة العربية وآدابها محط أنظارنا وموضع اهتمامنا - نحن مسلمي ماليزيا - مثلنا مثل باقي الشعوب الإسلامية ، وهي موئل رجائنا في أن يجعل الله لنا بها دليلا هاديا لفهم نصوص القرآن الكريم ومتابعة أحكامه بما يقربنا إليه سبحانه وتعالى فننال رضاه ، وننشر رسالة الإسلام ولغة القرآن وآداب العربية بين أهلنا في بلدنا ، فنفوز بخيري الدنيا والآخرة ، إن شاء الله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كان مما يندرج في هذا الباب ، دراستي اللغة العربية وآدابها في الجامعة الوطنية الماليزية ، ومتابعتي للماجستير في الجامعة نفسها ، وبعد ذلك متابعتي دراسة الدكتوراة في جامعتنا الأردنية العتيدة ... وإذ درست الأدب العربي على أيدي أساتذة أكفاء . فإني قد بحثت مع أستاذي الكريم الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي عن موضوع أجعله أطروحة لرسالة الدكتوراة، فوجد موضوع الرسائل في العصر المملوكي الثاني مادة يمكن دراستها ، إذ شهدت هذه المرحلة تطورا واضحا في هذا الفن ، لم يلق ما يستحقه من عناية الدارسين إذ ركزوا جهدهم على العصر المملوكي الأول .

وكادت عزيمتي تفتر أمام ما وجدت من صعوبات بعضها يتعلق بقلة المصادر، وبعضها الآخر يتعلق بتركيز الاهتمام بالعصر المملوكي الأول دون العصر الثاني، وأخر يتعلق بالاهتمام بالرسائل الديوانية من دون الرسائل الإخوانية والأدبية .

وفي سبيل تذليل بعض تلك الصعوبات توجهت إلى مصر وسورية ، وبحثت في مكتباتها عن مخطوطات ودراسات تتصل بموضوعي هذا ، فلم أجد سوى بضعة كتب ومخطوطات تلمس جانبا قليلا منه . وقد أفدت من عدد من الدراسات السابقة التي عالجت هذا الموضوع معالجة جزئية ، دون أن ترسم صورة متكاملة للرسائل الفنية، ومن بين تلك الدراسات :

دراسة الدكتور شوقي ضيف الموسومة (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ، وهي دراسة في فنون النثر بعامة ، وليس في الرسائل بخاصة ، ولم يكن الجزء الذي خصصه لدراسة النثر في هذا العصر شاملا يتيح لنا الوقوف على فن الرسائل من حيث الموضوعات ، إذ خصص الكتاب الأول للصنعة ، وأما الثاني فللتصنع ، وخصص الكتاب الثالث للحديث عن المذاهب الفنية في الأندلس ومصر، وفيه مبحث صغير عن النثر في عصر المماليك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما كتابه (عصر الدول والإمارات في مصر والشام) فقد أفرد فيه بابا للنثر وكتّابه وهو الباب الخامس ، وعرض للرسائل الديوانية ، والرسائل الإخوانية في أنموذجين للرسائل فقط ، دون التوسع في ذلك .

أما كتاب الدكتور محمد كامل الفقي (الأدب العربي في العصر المملوكي) ، فقد خصص بضع صفحات منه للحديث عن الرسائل ، حيث ركز فقط على الإخوانية منها، والتعليمية ، وفن المقالة ، وتوسع في حديثه عن الشعر في هذا العصر دون أن يولي الرسائل الاهتمام الذي تستحقه .

وصب الدكتور عمر موسى باشا في كتابه (تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي) اهتمامه على أعلام كتاب العصر ، دون الوقوف على أساليب كتابة الرسائل ، ولم يفرد جزءا من كتابه للرسائل .

أما دراسة الدكتور أنيس المقدسي (تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي) فلم يُخصص جزء منها لدراسة الرسائل في العصر المملوكي ، وكان الفصل الذي خصصه المؤلف للحديث عن الرسائل الديوانية عاما اشتمل على الرسائل قديما وحديثا ، وفي حديثه عن الرسائل الأدبية ، أورد نماذج منها كتبت قبل هذا العصر وبعده ، وعندما أشار إلى نخبة من أمراء الإنشاء الديواني ، لم يشر إلى أي من كتاب الإنشاء لهذا العصر.

ويخلو كتاب الدكتور جودة الركابي (الأدب العربي من الإنحدار إلى الإزدهار) من أي نص للرسائل ، واكتفى المؤلف بوصف هذا العصر بالجمود والانحطاط ، أما نثر العصر المملوكي فقد وسمه بالعقم ، وتناول في القسم الأول الذي تحدث فيه عن أدب عصور الانحدار ، حالة النثر والشعر في تلك العصور ، وتطرق في حديثه إلى واحد فقط من مشاهير كتاب هذا العصر ، وهو القلقشندي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أضاءت الدراسات المتقدمة جوانب من موضوع بحثي ، وجعلت السبل أمامي سالكة ، ومهدت لي طريق البحث لما ضمته من آراء وأفكار بذل مؤلفوها جهدا كبيرا في دراسة الأدب العربي في هذا العصر .

وتحاول هذه الرسالة أن تلم بموضوع الرسائل من جميع جوانبه ، فهي تبحث في هذه الرسائل ، وأبرز أعلامها ، وهي دراسة تهتم بالجانبين الموضوعي والفني في آن واحد .

والرسالة هذه تلتزم منهجا متكاملا ، فقد أفادت من عدد من المناهج ، حسبما تدعو إليه طبيعة البحث ، وقد تضمنت تمهيدا موسعا تناولت فيه مفهوم الرسالة وخمسة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن الرسالة الديوانية ، وتضمن البحث عن معنى ديوان الإنشاء وما يتعلق به ، إلى جانب البحث عن الرسائل التي سلطت الضوء على الحياة السياسية ، والدينية ، والاجتماعية ، والثقافية للعصر.

أما الفصل الثاني ، فقد خصصته للرسائل الإخوانية ، واشتملت موضوعاته على التهاني ، والتعازي ، والشكوى ، والعتاب ، والإعتذار.

وكانت الرسائل الأدبية من حصة الفصل الثالث والتي ضمت الطرديات، ووصف النكبات ، والمجون ، والمفاخرات ، والمناظرات .

أما الفصل الرابع ، فقد أفردته للدراسة الفنية وبحثت فيه بناء الرسالة والأسلوب ، فضلا عن الصورة الأدبية التي اجتهد كتاب هذا العصر في رسمها للتدليل على ملكتهم الأدبية .

وتحدثت في الفصل الخامس عن أبرز الكتاب في العصر المملوكي الثاني ، وهم أبو العباس القلقشندي ، وابن حجة الحموي ، وشمس الدين النواجي ، وجلال الدين السيوطي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنهيت البحث بخاتمة ، عرضت فيها لأهم النتائج التي تمكنت من الوصول إليها .

وأنا مدين في هذه الرسالة لأستاذي الفاضل الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي الذي رعى هذه الرسالة منذ كانت فكرة إلى أن صارت حقيقة واقعة ، فهو لم يضن علي بشيء من علمه ، وفضله وحسن خلقه ، فله الشكر وجزاه الله عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة .

والشكر كل الشكر لأساتذتي الكرام :

- أ. الدكتور نصرت عبدالرحمن

- أ. الدكتور يوسف بكار

- أ. الدكتور إبراهيم السعافين

الذين تجشموا عناء الإطلاع على هذه الرسالة والنظر فيها وتقويمها ومناقشتها، والذين سأفيد من ملحوظاتهم وتوجيهاتهم بإذن الله .

والله الهادي إلى سواء السبيل وهو نعم المولى ونعم النصير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١

مفهوم الرسالة وتطوره

انقسمت الآراء حول مفهوم الرسالة إلى اتجاهين رئيسيين ، اتجاه يميل إلى عدم ربط الرسالة بالنثر أوالشعر ، والآخر يميل إلى ربطها بالنثر دون الشعر. وكان القلقشندي من بين من ساروا حسب الاتجاه الأول ، وهذا واضح عندما يعرّف الرسالة بقوله : «المراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال ، من عدو أو صديق، أو مدح أو تقريض ، أو مفاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى ، وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كَتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال ، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات ، ثم تَوَسَّع فيها فافتُتِحتْ بالخطب وغيرها ».[١]

وذهب صاحب الكليات بمفهوم الرسالة إلى أنها : «العبارات المؤلّفة والمعاني المدونة لما فيها من إيصالِ كلام المؤلف والمراد إلى المؤلَّف له »[٢].

وأما من ساروا حسب الاتجاه الثاني ، ومن بينهم ابن قتيبة فَيَعُدُّها فنا نثريا جميلا يقابل الشعر ، يقول : «وللشعر تاراتٌ يُبعَد فيها قريبُه ، ويُستَصعَب فيها رَيِّضُه ، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل ، والمقامات ، والجوابات ، فقد يَتَعَذَّر

---

[١] القلقشندي - صبح الاعشى ، ج١٤ ، ص ١٥٧

[٢] الحسيني الكفوي - الكليات ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب »[١].

وأشار ابن الأثير إلى أن الرسالة هي الكلام النثري ، يقول في ضرورة عدم حفظ الكاتب للكلام المنثور :« والذي بعثني على الإكباب على حفظ الشعر ، دون الخطب والرسائل ، أني إذا أخذت معنى من معاني الشعر ، وأودعته رسائلي ، كنت قد نقلت من ضد إلى ضد »[٢].

في العصر الجاهلي كان لهذا المصطلح مدلول خاص إذ كان المقصود به كل ما يؤديه المرسل إلى المرسل إليه عن طريق رواية الخبر والإبلاغ الشفهي ، ويؤكد ذلك اقتران هذا المصطلح غالبا بلفظة (أبلغ) مما يدل على النقل الشفهي والرواية الشفهية ، مثال ذلك ما ورد في معلقة زهير:

ألا أبْلغ الأحلافَ عَنِّي رسالةً وذُبيان هل أقسَمْتم كلَّ مقسم[٣]

وقد ظل هذا المصطلح في مستهل العصر الإسلامي يدل على التبليغ الشفهي ونقل الخبر عن طريق الرواية الشفهية ، إلا أن هذا المفهوم قد تطور مع مرور الأيام، وأصبح بعد ذلك يعني النص المكتوب الذي يبعثه المرسل إلى المرسل إليه ، إلى جانب نقل الخبر بوساطة المرسل إلى المرسل إليه شفاها .

حسبنا دليلا على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث الرسائل إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام [٤]، وهذا إلى جانب دعوته شفاها . فقد

---

[١] ابن قتيبة - الشعر والشعراء ، ج١ ، ص ٢٥

[٢] ابن الأثير - الوشي المرقوم ، ص٥٠ - ٥٢ ، وانظر ابن الأثير - المثل السائر ، ج١ ، ص ٢٣٩

[٣] زهير - ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٨١

[٤] في شهر ذي الحجة سنة ٦ الهجرية ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر من الرسل إلى ملوك العرب والعجم يحملون رسائل رسول الله يدعوهم إلى الإسلام ، هم حاطب بن أبي=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم في مواضع عدة ، من ذلك قوله سبحانه وتعالى {فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي}[١] وقوله جلت قدرته {وإن لم تفعل فما بلغت رسالته}[٢].

وقد ورد هذا المصطلح بصيغة الجمع متضمنا المدلول نفسه ، قال عز وجل :

{الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله}[٣] ، وقوله تعالى : {ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم}[٤].

ويتضح من هذه الآيات الكريمة أن مصطلح رسالة يدل أدق دلالة على الإبلاغ، إما بالنقل الشفهي عن طريق الرسل والأنبياء الذين حملوا رسالات ربهم إلى البشر ، وإما عن طريق النص المكتوب الذي يبعثه الرسل والأنبياء إلى المرسل إليه، قال سبحانه وتعالى {إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي}[٥].

× × ×

=بلتعة من لخم حليف بني أسد بن عبدالعزى إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني ، ودِحْيَةَ بن خليفة الكلبي إلى قيصر وهو هِرَقل ملك الروم ، وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هَوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة، وبعث عبدالله بن حُذافة السهمي إلى كسرى ، وعمرو بن أمية الضَمْريّ إلى النجاشي ، أنظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ - ٦٥٧ .

[١] سورة الأعراف : ٧٩

[٢] سورة المائدة : ٦٧

[٣] سورة الأحزاب : ٣٩

[٤] سورة الجن : ٢٨

[٥] سورة الأعراف : ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان استعمال مصطلح (الرسالة) قد ظل شائعا بين الناس للدلالة على التبليغ الشفهي ، ونقل الخبر بوساطة النص المدون الذي يبعثه المرسل إلى المرسل إليه ، إلا أن تطور مدلول هذا المصطلح عبر العصور قد جعل مرادفات أخرى تستخدم إلى جانبه ، ومن ذلك مصطلح (كتاب) .

لقد كان يراد بمصطلح (كتاب) النص المدون المجموع بعضه إلى بعض ، ومنه « قيل كتبت الكتاب لأنه يجمع حرفا إلى حرف »[١] ، وقد ورد في هذا المعنى قول الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص :

لِمَن الدّارُ أقْفَرَتْ بالجِنَابِ غَيْرَ نُؤْيٍ ودِمْنَةٍ كالكتاب[٢] .

ودل هذا المصطلح أيضا على ما كتب فيه[٣] وأرسل إلى شخص معين وما إلى ذلك ، كما ورد في شعر لقيط الأيادي إذ كتب إلى قومه يحذرهم من نية كسرى لغزوهم فقال :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى رأيَه منكم ومن سَمِعَا[٤].

ظهر هذا التطور في مدلول هذه اللفظة بوضوح في أواخر عهد الخلفاء الراشدين إذ أصبح هذا المصطلح يطلق على النص المكتوب الذي يبعثه المرسل إلى المرسل إليه .

---

(١) ابن منظور - لسان العرب ، ج ٢ ، ص ١٩٥

(٢) عبيد - ديوان عبيد بن الأبرص ، ص : ٢١

(٣) ابن منظور - لسان العرب ، ج ٢ ، ص ١٩٢

(٤) لقيط - ديوان لقيط بن يعمر الأيادي ، ص ٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ورد كثير من الإشارات في الكتب يؤكد ذلك التطور منها ما ورد في رسالة الإمام علي بن أبي طالب الجوابية إلى معاوية بن أبي سفيان إذ كتب يقول له :

« أما بعد ، فقد أتتني منك موعظة مُوْصَلَة ، ورسالة مُحَبَّرَة ، نَمَّقْتَها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك ، وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده »[١].

من النص السابق نجد أن عليا رضي الله عنه قد استعمل لفظة (رسالة) على ما كتبه إلى معاوية ، ثم ذكر في ما بعد لفظة (كتاب) وهذا يؤكد أن الكلمتين (رسالة) و(كتاب) قد استعملتا في معنى واحد.

لقد ظل هذا المفهوم لمصطلح (الكتاب) ساريا فى الأدب الإسلامى حتى أصبح مرادفا لمدلول مصطلح (رسالة) ، وقد كان يراد بهذين المصطلحين معنى واحد ، ثم شاع بعد ذلك مصطلح رسالة وانتشر وأصبح أكثر دلالة على المكاتبات وما يبلغه المرسل إلى المرسل إليه .

× × ×

وقد استعمل الأدباء والنقاد والبلاغيون في القرنين الرابع والخامس الهجريين على وجه الخصوص في كتاباتهم ، كلمة مرادفة لمفهوم الرسالة ، وهي لفظة (الترسل) ، وتعني كتابة الرسائل أو نثر الرسائل[٢].

---

[١] ابن هبة الله - شرح نهج البلاغة، ص ٤٣

[٢] محمد المقداد - تاريخ الترسل النثري ، ص ١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتضح لنا من خلال العرض لمعنى الرسالة والألفاظ المرادفة لها ، أنه لا بد من وجود طرف منتج لتلك الرسالة بمستوى من المستويات الفنية وهو (المرسل)، وطرف مستلق لهذا الإنتاج هو (المرسل إليه) ، وطرف ناقل له هو (المرسل أو الرسول) [١] .

---

[١] محمد المقداد - تاريخ الترسل النثري ، ص ١١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الرسالة الديوانية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١

لفظة (الديوان) ومدلولها

لقد اختلفَ أغلب الدارسين من القدماء والمحدثين في أصل لفظة (ديوان)، وذهب أكثرهم إلى أن هذه اللفظة غير عربية . وقد أكد الأصمعي ذلك فذكر أن الديوان لفظ عجمي[١] ، كما أشار إلى ذلك أيضا الصولي إذ يرى أن الديوان اسم فارسي تكلمت به العرب ، فقالوا دِيوان ولم يقولوا دَيوان (بفتح الداء) كما قالوا دِيباج (بكسر الدال) ولم يقولوا دَيباج (بفتحها) [٢] ، ويوافق هذا الرأي ابن منظور إذ يقول : «الديوان فارسي معرب»[٣] ، ويقول البطليوسي :«الديوان اسم أعجمي عربته العرب ، وأصله دِوّان (بواو مشددة) ، فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها»[٤].

على الرغم من الآراء التي ذكرناها والتي تؤكد أن كلمة ديوان فارسية، هناك من ذهب إلى أنها عربية ، يقال : دونته أي أثبته[٥] ، وذكر القلقشندي ذلك في كتابه صبح الأعشى وقال : «والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه»[٦]، كما ذهب إلى ذلك البطليوسي فذكر أن العرب قد استعملت

٤٩٣٩٧٣

---

(١) القلقشندي - صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠

(٢) ابن قتيبة - ادب الكاتب ، ص ١٨٩

(٣) ابن منظور - لسان العرب ، ج ١٧ ، ص ٢٣

(٤) البطليوسي - الاقتضاب ، ص ٩٩

(٥) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص٩٠

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا اللفظ فجعلوا كل مَحَصَّلٍ من كلام أو شعر ديوانا[١].

لقد أُطْلِقَ لفظُ (ديوان) أول الأمر على السجلّ الذي تُثَبَّتُ فيه أسماء الجند والمقاتلين حسب قبائلهم ومقدار أَعْطِيَاتِهِمْ وما يُثَبَّتُ فيه أيضا من أموال الفيء وغيره ، وقد أشار إلى ذلك ابن منظور فقال :« الديوان هو الدفتر الذي تُكْتَب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء »[٢]. وإلى ذلك ذهب الكتاني فقال :« الديوان دفتر تُكتب فيه أسماء أهل العطاء والعساكر على القبائل والبطون »[٣].

ثم صارت هذه اللفظة (ديوان) تطلق بعد ذلك على سجلات الحساب العامة[٤].

ولقد تطور مدلول هذه اللفظة فصار يطلق حينا على الموضع الذي توضع فيه تلك السجلات . ذكر الماوردي : « والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال »[٥] ، : « ثم أطلق الاسم (ديوان) بعد ذلك على مكاتب بيت المال ... »[٦].

وقد يطلق هذا اللفظ أحيانا على الموضع الذي يجلس فيه الكتاب[٧] ، وذكر ذلك ابن قتيبة حين قال : « إنما قيل (ديوان) لموضع الكَتَبَة والحُسَّاب لأنه يقال

---

(١) البطليوسي - الاقتضاب ، ص ٩٩

(٢) ابن منظور - لسان العرب ، ج١٧ ، ص ٢٣

(٣) الكتاني - التراتيب الإدارية ، ج١ ، ص ٢٢٥

(٤) محمد ثابت وآخرون - دائرة المعارف ،ج ٩ ، ص ٣٧٨

(٥) الماوردي - الأحكام السلطانية، ص ١٩٩ .

(٦) محمد ثابت وآخرون - دائرة المعارف ، ٩ : ٣٧٨

(٧) ابن خلدون - تاريخ ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٤٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للكتّاب بالفارسية (ديوان) أي شياطين لحذقهم بالأمور ولطفهم فسمي موضعهم باسمهم »[١]. وإلى ذلك ذهب القلقشندي فقال : « الديوان اسم للموضع الذي يجلس فيه الكتّاب »[٢].

وهذا يدل بوضوح أن مدلول لفظة (ديوان) قد تطور كثيرا عبر الزمن، وتوسع استعمالها في النظم الإدارية العربية ، وكان أول ديوان وضع في الإسلام في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣] إذ رأى ضرورة تدوين الناس وأعطِيَاتهم وأموال الفيئ والخراج فكان ذلك إيذانا بوضع أسس ديوانَي الجند والخراج .

٢

ديوان الإنشاء :تطوره وأهميته ووظائفه

ديوان الإنشاء هو ديوان يُعْنَى بكتابة ما يأمر به الخليفة ، ويُدَوَّنُ بأسلوب أدبي فني ما هو مطلوب[٤] ، وهو أول ديوان وضع في الإسلام[٥] ، وقد تطور هذا الديوان تطورا كبيرا وازداد الاهتمام به ، باعتبار أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تنشأ عنه وتبدأ منه[٦].

---

(١) ابن قتيبة - عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٠

(٢) القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠

(٣) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٥٣، والطبري - تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦١٣

(٤) التونجي - المعجم المفصل في الأدب ، ج ٢، ص ٤٥٧ - ٤٥٨

(٥) القلقشندي - صبح الأعشى ، ١ : ١٢٥

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في مصر كانت النواة لديوان الإنشاء ما أنشأه (أحمد بن طولون) [١] ومن بعده توالت الدواوين ، ولما كان عهد الفاطميين عظم أمر الدواوين ، ولقب صاحب الديوان بكاتب الدست الشريف ، وفي عهد (المنتصر بالله) الفاطمي أصبح لا يليه إلا أكابر الكتاب ، حتى إذا ما قامت دولة (صلاح الدين) لبث الديوان على رونقه وتولاه من الكتاب (القاضي الفاضل) الذي أضيفت إليه الوزارة فيما بعد[٢].

وفي عهد المماليك ازدادت أهمية ديوان الإنشاء وكتّابه ، واتسعت آفاقه ، وصار له النفوذ والسلطان في أكثر فروع الحكومة . ومن بين الأسباب التي تؤدي إلى ذلك تعقد النظام الإداري في البلاد وتعدد الأجهزة ، إذ كانت الدولة موزعة في نيابات عدة بين مصر والشام ، وامتدت سيطرة المماليك إلى الحجاز ، وربطت الدولة بعلاقات متشعبة مع الدول الإسلامية وغيرها من الدول في أنحاء المعمورة ، وقد نشأ عن ذلك كله حاجة شديدة إلى نظام مراسلات دقيق ، مما أدى إلى عنايتهم بديوان الإنشاء ، فأضبح من أهم أجهزة الدولة ، ولذلك « أصبح صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك في كل زمن ، مقدما لديهم على من عداه ، يلقون إليه أسرارهم ، ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء : من الوزراء والأهل والولد »[٣] .

إن أهمية ديوان الإنشاء والمكانة السياسية لرجاله دفعت من يريد الوصول إلى هذا المنصب أن يأخذ بحظ كبير من الثقافة ، ليؤهله لهذا المنصب الرفيع ،

---

(١) السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، وأنظر رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ج٥ ، ص ٩٥ - ٩٦

(٢) الفقي - الأدب العربي في العصر المملوكي ، ص ١٠٨

(٣) بدوي - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٣٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضلا عما يجب أن يتصف به من صفات عقلية وخلقية[١] ، فأصبح ديوان الإنشاء مَقْصَدَ الأدباء وهدفهم الأسمى الذي يطمحون للوصول إليه ، لذلك جوَّدوا أساليبهم في الكتابة لكي ينالوا هذا الشرف لما يتمتع به صاحب هذه الصنعة من مكانة لائقة. فكتابة السر في دولة المماليك تأتي في الترتيب الثاني من جملة الوظائف الديوانية بعد الوزارة[٢] ، كما كان كاتب ديوان الإنشاء أو رئيس الديوان يحظى بالجلوس في مكان قريب جدا من السلطان ، فكان يجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، ثم وكيل بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة ، ويجلس على يساره رئيس ديوان الإنشاء وقدامه ناظر الجيش[٣] .

× × ×

يوضح لنا القلقشندي أن ديوان الإنشاء في العصر المملوكي كان يضم ثلاثة أنواع من الكتّاب وهم :

١- كتّاب السر : وهم الذين يقرأون الكتب الواردة على السلطان ، ويكتبون أجوبتها ، ويأخذون خط السلطان عليها وتسفيرها ، وتصريف المراسيم ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها ، وفي وقت متأخر من العصر أصبح له الحق في التوقيع على ما كان الوزير يوقِّع عليه ، مع مراجعة السلطان في ما يحتاج إلى المراجعة فيه .

---

[١] بدوي - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣٩

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣٠

[٣] المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- كتّاب الدست : وهم الذين يجلسون في دار العدل ، ويقرأون القصص على السلطان ، ويوقعون عليها بأمره .

٣- كتّاب الدرج : وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يُكتب على الأبواب الشريفة وربما شاركهم كتّاب الدست في ذلك[١] .

إن منصب رئيس الديوان - كاتب السر - مهم جدا في هذا العصر لأنه يعَدُّ المستشار المؤتمن لدى السلطان، إلى جانب كونه سفيرا للبلاد ، ولسان الدولة ، ومما يوصى به رئيس ديوان الإنشاء على لسان السلطان في هذا العصر ، ونذكر هذا النص :

«ولْيعلم أنه هو لدينا المستشار المؤتمن ، والسفير الذي كل أحد بسفارته مرتَهن ، وهو إذا كتب بنانُنا ، وإذا نطق لسانُنا ، وإذا خاطب ملِكا بعيد المدى عنوانُنا ، وإذا سدَّد رأيَه في نحور الأعداء سهْمُنا المرسَل وسنانُنا فليُنْزِلْ نفسَه مكانَها ، ولْينظر لدينا رتبته العالية ، إذا رأى مثلَ النجوم عيانُها ، فليراقب اللهَ تعالى في هذه الرتبة ولْيَتَوَقَّ لدِينه ، فإن الله لا يضيع عنده مثقال حبة ، ولْيَخَفْ سوء الحساب ولْيَتَّقِ اللهَ ربه »[٢] .

ولصاحب الديوان أن يتصرف بتدبيره وبقلمه في اثنى عشر أمرا وهي التوقيع والتعيين ، ونَظَرُهُ في الكتب الواردة عليه وهو الذي يقرأ الكتب الواردة على الملك ، ونظره في ما يتعلق برده الأجوبة عن الكتب الواردة على لسانه ، ونظره في ما تتفاوت به المراتب في المكاتبات والولايات من الافتتاح والدعاء ، والألقاب ،

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣٠

[٢] ابن فضل الله - التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٥٧ - ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقطع الورق ونحو ذلك ، ونظره في ما يكتب من ديوانه وتصفحه قبل إخراجه من الديوان ، ونظره في أمر البريد ومتعلقاته ، وهو من أعظم مهمات السلطان ، وأكد روابط الملك ، ونظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته[١] ، ونظره في أمور الفداوية[٢] ، ونظره في أمر العيون والجواسيس ، ونظره في أمور القصاد الذين يسافرون بالملطفات من الكتب عند تعذر وصول البرد إلى ناحية من النواحي ، ونظره كذلك في أمر المناور[٣] والمحرقات[٤] ، ونظره في الأمور العامة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة[٥] .

وكذلك يضع في الديوان سجلا خاصا بألقاب الموظفين ورتبهم وأسمائهم ، وطريقة خطاب كل منهم ، ومقدار دعائه ، ويضمنه ألقاب الملوك المكاتبين وأسماءهم والدعاء لهم ، ويكون هذا الدفتر حاضرا لدى كتاب الإنشاء ، وينقلون منه فى

---

[١] ان بالديار المصرية أبراجا للحمام الرسائلي يحمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان ، منها برج بقلعة الجبل وغيره ، انظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤

[٢] هم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، وسموا الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه ، ويسمون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يبطنون مذهبهم ويخفونه ، وتارة بالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد، انظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٥٥ - ١٥٨

[٣] المناور : كان بين الفرات وإلى قريب من بلبيس أمكنة مرتبة برؤوس جبال عوال ، بها أقوام مقيمون فيها ، إذ حدث حادث عدو من بلاد التتار ، إن كان ذلك في الليل أوقدت النار بالمكان المقارب للفرات من رؤوس تلك الجبال ، فينظره من بعده ، فتوقد النار فينظره من بعده ، فتوقد النار وهكذا حتى ينتهي الوقود إلى المكان الذي بالقرب من بلبيس في يوم أو بعض يوم ، فيرسل بطاقته على أجنحة الحمام بالإعلام بذلك فيعلم أنه قد تحرك عدو في الحملة فيؤخذ في التأهب له حتى تصل البرد بالخبر مفصلا، انظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٤

[٤] المحرقات وهو قوم مرتبون بالقرب من بلاد التتار يتحيلون على إحراق زروعهم بأن تمسك بالثعالب ونحوها وتربط الخرق المغموسة في الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد بالنار ونرسل في زروعهم ، انظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٤

[٥] القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٦٥

المكاتبات ما يحتاجون إليه . ومن وظائفه كذلك ، أن يضع سجلا في الديوان للحوادث المهمة ، ويذكر كلا منها في تاريخه[١] ، إلى جانب تحليف أمراء المماليك وجنودهم على الولاء للسلطان ، أو ولي عهده من بعده ، فيجتمعون في القلعة ، ويتصدى كل منهم لتحليف جماعة على القرآن الكريم بنسخة يمين موحدة ، ثم يدون أسماءهم على ورقة تحفظ في الديوان[٢].

ومما تقدم نرى الأهمية الكبيرة لهذه المهمة التي هي لسان السلطان في أوامره التي يصدرها.

وكان لهذا الديوان أثر واضح في الحياة الأدبية في هذا العصر ، ففيه تخرج عدد كبير من كتاب العصر وأدبائه ، واشتهر من رؤسائه : محيي الدين بن عبد الظاهر[٣] وابنه القاضي الفاضل فتح الدين[٤] ، وهو أول من سمي كاتب السر ، وأصبحت مهمة صاحب الديوان في العصر المملوكي الثاني « قد تصل إلى مرتبة الوزير أو رئيس الوزراء »[٥] ، و « الكلام فسيه كالكلام في الوزير »[٦] ، بل سمت

---

(١) خالد عبدالرؤوف - الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول ، ص ٦

(٢) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣١٩

(٣) هو عبدالله بن عبدالظاهر بن نشوان السعدي : قاضي ، أديب ، مؤرخ ، ولد بمصر وتوفي فيها سنة ٦٩٢هـ ، أنظر الزركلي - الأعلام ، ج٤ ، ص ٩٨

(٤) أبناء عبدالظاهر ثلاثة وهم : علاء الدين علي ، وفتح الدين محمد ، ومحيي الدين أبو الفضل عبدالله كانوا واحدا بعد الآخر أصحاب دواوين الإنشاء في الديار المصرية ، فمحيي الدين كان صاحب ديوان الإنشاء لكل من الملك بيبرس ، والملك منصور قلاوون ، والملك الأشرف خليل ، وقد توفي سنة ٦٩٢هـ ، أما ابنه فتح الدين محمد ، الذي توفي في حياة والده سنة ٦٩١هـ ، فقد كان ذا حظوة كبيرة عند المنصور قلاوون الذي قدمه في بعض الأحيان على وزيره فخر الدين بن لقمان، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن فتح الدين هذا كان أول كاتب سر في الدولة التركية وغيرها ، أنظر الخطط التوفيقية ، ج ١ ، ص ٣١

(٥) التونجي - المعجم المفصل في الأدب ، ج ٣ ، ص ٤٥٧

(٦) الدمشقي - نقد الطالب ، ص ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منزلته فوق منزلة الوزير[١]، متمشيا مع ازدياد الحاجة إلى ضبط أمور الدولة، وتحرير الرسائل السلطانية في مختلف الشؤون.

صفات أصحاب الديوان

ونظرا لأهمية هذا الديوان فلا بد لصاحبه أن يتحلى بصفات متميزة، ونجد في كتاب صبح الأعشى، أن القلقشندي شرح شرحا كاملا لما تضمنته هذه الأمور من قواعد وما اشتملت عليه من أنواع الثقافات التي يجب على كاتب الديوان أن يَلِمَّ بها[٢].

ومن بين هذه الصفات: أن يكون مسلما، يؤمن بما يكتبه ويمليه، ولا يجوز أن يتولى ذلك أحدٌ من أهل الكفر إذ يكون عينا للكفار على المسلمين، وأن يكون ذكرا، حرا، مكلفا، عادلا، فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا وما إلى ذلك، ولا بد أن يكون بليغا، وَفُوْرَ العقل، عالما بالأحكام الشرعية والفنون الأدبية وغيرها، قوي العزم، عالي الهمة، شريف النفس، وأن يكون كافيا لما يتولاه[٣]. إلى جانب الصفات النفسية الأخرى كأن يكون حاد الذهن، قوي النفس، حاضر الحس، جيد الحدس، حلو اللسان، له جرأة يُثَبِّتُ بها الأمور على حكم البديهة، وفيه تُؤَدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية، شريف الأنفة، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة، مؤدب الخُدام[٤].

---

[١] الفقي - الأدب العربي في العصر المملوكي، ص ١٠٩

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى، ج ١، ص٢٤ - ٣٦

[٣] لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسلمين، أنظر القلقشندي - صبح الأعشى، ج١، ص ٩٣ - ٩٩

[٤] المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩ - ١٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزاد محمد بن إبراهيم الشيباني[١] الصفات الخَلقية الأخرى منها «اعتدال القامة ، وصِغر الهامة ، وخفة اللَّهَازِم[٢] ، وكثاثة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل ، وخطف الإشارة ، وملاحة الزِي ، قال : «ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلِس ، ظاهر المروءة ، عَطِرَ الرائحة ، دقيق الذهن ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك، مُسْتَفْرَهَ المَركب[٣] ، ولا يكون مع ذلك فضفاضة الجثة، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة »[٤] .

إن مقتضى هذه الصفات يفضي إلى التأكيد على أن للكاتب أن يمتلك كل «العلوم المتداوَلة على ألسنة أرباب الفضائل ، مع تَجَنُّب ما ينحو إليه أرباب الرذائل »[٥] لكي «يتجنب معائبَ النَثْرِ كما يتجنب معائب الشعر »[٦] .

---

[١] محمد بن إبراهيم بن خيرة الشيباني : أديب أندلسي من كتاب الولاة من أهل قرطبة ، توفي بمراكش سنة ٥٦٤هـ ، أنظر الزركلي – الأعلام ، ج ٥ ، ص ٢٩٦

[٢] مفردها : لهزمة وهو عظم ناتيء في اللحي تحت الأذن ، أنظر القلقشندي – صبح الأعشى ، ج١ ، ص ١٠٠

[٣] أي يركب دابة فارهة نشيطة ، ابن منظور – لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٥٢١

[٤] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠٠

[٥] ابن الأثير – المفتاح المنشا ، ص ١٥

[٦] المصدر نفسه ، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

الرسائل الديوانية ووظيفتها

أما الرسائل الديوانية التي نحن بصدد البحث عنها ، فتشير بعض المصادر إلى أن أول مراحل هذا اللون من المكاتبات الصادرة عن الديوان الرسمي كان في عهد الخليفة الأموي معاوية حين تذكر أن عبيدالله بن أوس الغساني، كان يكتب لمعاوية على الرسائل[١] ، ولذلك يمكننا القول إن ديوان الرسائل ظهر في أوائل العصر الأموي ، في أيام معاوية بن أبي سفيان وتطور سريعا حتى انتشر في الولايات المختلفة ، فسمعنا عن ديوان العراق وديوان خراسان[٢] في عهد عبدالملك ابن مروان .

كثرت آراء الدارسين قديما وحديثا حول مفهوم الرسائل الديوانية، فالقلقشندي يقول :« إنها كل ما رجع إلى صناعة الكتابة وإلى تأليف الكلام ، وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات والمسامحات ، والإطلاقات ، ومناشير الإقطاعات والهدن ، والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك »[٣] . ويقول ابن خلدون في ذلك : « إنها تعني المخاطبات لمن بعد عن السلطان وتنفيذ الأوامر لمن حجب عنه »[٤] ، في حين حدد محمد

---

[١] الجهشياري – الوزراء والكتاب ، ص ٢٤

[٢] المصدر نفسه ، ص ٦٣

[٣] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٨٤

[٤] ابن خلدون – مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ، ص ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبدالمنعم خفاجي مفهومها بأنها الرسائل التي تصدر عن ديوان الإنشاء باسم سلطان وتعبر عن شؤون الدولة المختلفة من سياسية وعسكرية واقتصادية وغيرها ، وكان رؤساء ديوان الإنشاء هم الذين يتولونها ، وتتناول كل ما يصدر عن الحضرة السلطانية إلى مختلف الجهات من الأوامر والمراسيم ومكاتبات السلطان إلى العمال والقواد والملوك والأمراء، وتقليد الوظائف وتوجيه الجيوش والتهنئة بالنصر وسوى ذلك من شتى الأغراض [١].

أما الدكتور حسني ناعسة فإنه يرى أن هذه الرسائل التي تنسب إلى ديوان الإنشاء تعرف أيضا بالرسالة الرسمية ، وفي رأيه أن هذه التسمية أدق لأنها تنطبع بنظام الدولة ورجالها ولأن رسائل كثيرة للحكومة لم تكن تصدر عن الديوان ، وكان يصدرها رجال الحكومة وهم في حروب أو فتوح ...، وكان الناس يرفعون حوائجهم إلى رجال الدولة بأوصافهم لا بذواتهم ، أي بمناصبهم وما أوتوه من سلطان ، ليحكموا فيها ، وينفذوا أحكامهم ، وهذه الرسالة رسمية كذلك[٢].

تشير الآراء السابقة في تعريف الرسائل الديوانية إلى أنها تلك الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء أو تَنتسب إليه ، متضمنة غرضا محددا ، يكون فيها اسم السلطان أو من ينوب عنه صريحا أو ما يشير إليه ، باعتبارها صادرة عنه وبأمره، كما تتضمن اسم المرسل إليه صريحا ، باعتباره المقصود بهذه الرسالة ، ولا بد من كتابة تاريخ الرسالة عليها.

---

[١] خفاجي – الحياة الأدبية ، ص ٦٣

[٢] حسني ناعسة – الكتابة الفنية ، ص ٢٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما ما يتعلق بوظيفتها فإنها تشكل لسان حال الدولة ، وعليها يَعْتَمِد ترتيبُها وتيْسيرُ أمورها ، وتحديدُ علاقتها مع الدول الأخرى ، ولَرُبَّما كانت وبالا عليها إذا ما أُسِيْءَ إنشاؤُها ، وقد تكون مصدرَ خير ويُمنٍ ومنعةٍ إذا ما أحسن إنشاؤها ، فعليها تَعْتَمِد هَيْبَةُ الدولة وتَستند عليها أركانُها ، فبالكتابة والكتّاب قامت الرياسةُ والسياسة[1].

يقول ضياء الدين بن الأثير عن مكانة هذه الرسالة ووظيفتها :« إن أشرف صناعات الممالك وأسناها، وأفضلَ درجات المملكة وأعلاها ، وأمْيَزَ رُتَبِها وأبهاها، منازل الإنشاء الجامعة للأشياء الذي له قِوامُ المُلْك وضبط قواعده ، والكف لكف النسيان لساعده ، وهو لها اليد اليمنى التي بها الأخذ والعطاء ، والمنع والإمضاء ، والبسط والقبض ، والوصل والفض ، والسر والجهر ، والنهي والأمر ، وهو على كل حال أسُّ النظام ، وحِفْظ الأنام »[2].

إن هذه الآراء كلهاتدل بوضوح على أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة والدين والاجتماع والثقافة في عصرها إذ إنها تُعَبِّر عن الجوانب الأربعة السابقة بكل دقة وصراحة في متونها .

ومن حيث أنواعها فإنها تتنوع إلى عدة أنواع ، فمن أهم أنواعها : الرسائل الملوكية التي تُرْسل على لسان السلطان إلى غيره من الملوك والسلاطين والأمراء ، في أمرٍ ذي بال ، مُبَادَأةً بها ، أو ردا على مثلها، ومنها « الرسائل المشتملة على الغزو ،

---

(١) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٦٦

(٢) ابن الأثير - المفتاح المنشا ، ص ١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصيد ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورد المدح ، والذم وما إلى ذلك »[١].

ومنها العهود وهي التي تكتب للخلفاء عن الخلفاء ، أو للملوك عن الخلفاء ، أو لولاة العهد بالسلطنة عن الملوك[٢] ، وأما المبايعات فهي التي تكتب للخليفة أو الملك عند قيامه لأول مرة بأعباء منصبه ، إقرارا له به ورضى عنه ، وهي في أربعة أمور:

وهي : « موت الخليفة المتقدم عن غير عهد لخليفة بعده ، أويعهد الخليفة إلى خليفة بعده ، أو تؤخذ البيعة للخليفة بحضرة ولايته ثم تنفذ الكتب إلى الأعمال لأخذ البيعة على أهلها ، أو أن يعرض للخليفة خلل في حال خلافته ، من ظهور مخالف أو خروج خارجي ، فيحتاج إلى تجديد البيعة له حيث وقع الخلاف »[٣].

وغير ذلك من التقاليد ، والتواقيع ، والمراسيم ، والمناشير ، وكذلك الرسائل التي تصدر عن ديوان الإنشاء باسم السلطان كالبشارات ، والصداق، والوصايا وما إلى ذلك .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١، ص ٥٨

[٢] المصدر نفسه ، ج ١، ص ٥٢

[٣] المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة الديوانية والحياة السياسية

١

الأحوال السياسية

لقد كثرت الموضوعات السياسية التي تصل إلينا بوساطة الرسائل الديوانية، من أبرزها في شؤون الخلافة والخلفاء ، والسلطنة والسلاطين ، وولاية العهد ، ونيابة السلطنة ونواب السلاطين ، والوزارة والوزراء ، والولاية والولاة ، والإدارية ، والإقطاع والضرائب ، والقضائية والتعليمية ، وأهل الذمة والعلاقات الخارجية وغيرها[١] .

لذلك تعد الرسائل الديوانية من أهم المصادر الموثوقة في تصوير الحالة السياسية للبلاد في ذلك العصر ، وتأتي أهميتها من ناحية صلتها الوثيقة بالسياسة العليا للدولة في بيان نزعات السلطان وإيضاح خططه ونواياه ، إزاء المرسل إليه وبلاده ، ومن ناحية ما قد يترتب عليها من مودة وحسن اتصال أو خصام قد يتطور إلى نزاع ، فتكون تلك الرسالة تهديدا أو ردا على تهديد ، وقد تكون إعلاما بغزو أو ظفر ، أو إيذانا بتحرك عدو ، أو اتهاما بممالأة خصم ، أو إجابة لمعونة ، أو عرضا لقضية ، أو فضا لمشكلة ، ونحو ذلك مما يكون بين الملوك الأنداد أو بين السلطان وكبار نوابه في الأقاليم[٢] .

---

[١] حمادة - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ، ص ، ١٧ - ٨٦

[٢] رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ، ج ٦ ، ص ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرسائل الديوانية التي تتعلق بالحياة السياسية في ذلك العصر كثيرة ، منها (العهود) ، وهذا النوع من الرسالة يكتب عند تولية سلطان أو خليفة جديد ، أو عندما يَعْهِد السلطان بولاية سلطنته لولي عهده ، وما إلى ذلك ، ومنها عهد الخليفة العباسي المستعين بالله بتنصيب الملك المؤيد شيخ ملكا على دولة المماليك ، وهو من إنشاء محمد بن البارزي الحموي[١] ، وذلك في سنة ٨١٥هـ ، قال فيه : «وعَهِدَ إليك أمير المؤمنين في كل ما وراء سرير خلافته ... تفويضا شاملا ، وتقليدا كاملا، وعهدا تاما، وإسنادا عاما وولايةً مُكَمَّلَةً البنيان مؤسسة على تقوى من الله ورضوانه ، وسَلطنةً آخذةً بالذمم مشتملةً على جميع الأمم» ، وقوله : «يدخل في ذلك مفضول الناس وفاضلهم ... والقضاةُ وأحكامها والخطباء ومنابرها وأعلامها»[٢].

من خلال هذا العهد فإن الخليفة يفوض كل أمور الدولة إلى السلطان من قضائية ومالية ودفاعية وما تترتب عليها من الأمور الأمنية والجهادية بقوله : «ويدخل في هذا العهد العام والتفويض التام... القضاة وأحكامها ... والمنع والعطاء، والقبض والإمضاء »، وعن المالية قوله : « ... بيوت الأموال والذخائر ... والخراج وجباياته...والصدقات ومستحقوها ، والرزق ومرتزقوها ، والإقطاعات والأجناد ، والخمس والزكوات » ، والتفويض التام على الأمور الدفاعية والأمنية والجهادية ، فإن العهد يقول :« ... والجيوش والعساكر والكتائب ... وما يُسْتَعَدُّ به لمواطن الجهاد ... والهدن والمعاهدات »[٣].

---

[١] هو قاضي القضاة أبو المعالي محمد بن المقر الكريم قاضي القضاة كمال الدين محمد بن قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن البارزي الحموي الشافعي ، وهو من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٧٦٩هـ ، ونشأ بحماة ، وقلد قضاء القضاة بها لابتداء أمره ، ثم قلده المؤيد شيخ أبو النصر صاحب الديار المصرية والممالك الشامية ، ديوان أنسابه ، أنظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٤

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٠، ص ١٢٩ - ١٣٠

[٣] المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يَلْفِتُ النظر ، أن الخلفاء رغم ضعفهم في شؤون الدولة فإنهم يسعون بقدر الإمكان من خلال عهودهم إلى إظهار مكانتهم العالية في الدولة ، وهذه الظاهرة واضحة في العهد السابق ، فكأن تنصيب أي ملك من الملوك كان من اختيار الخلفاء بعد أن استخار الله ، يظهر ذلك من قوله : « فقدم أمير المؤمنين من الإستخارة أمام هذا التقليد ما يُعْتَبَرُ في السُنَّة الشريفة ويُقَدَّم ، وعلم أن المصلحة في ما خاره الله له وللأمة من ولايتك أيها الملك المبجل »[١] .

وزعم العهد أن الملك قد اختاره الله ، ولا سبيل لمخالفته مهما كَبُرَ ذنبه، لأن طاعة أولي الأمر مقترنة بطاعة الله ورسول صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا الصدد يقول فيه :« وعلم أن المصلحة فيما خاره الله له وللأمة من ولايتك أيها الملك المبجل والسلطان الأعظم ... قد أنزل الله عليك ناموس المهابة والجلالة »[٢] . وقال أيضا : « ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي قَرَنَ طاعةَ أولي الأمر بطاعته، وأيَّد من اهتدَى منهم بهدايته »[٣] .

وهذا العهد يعطينا صورة واضحة عن مدى مكانة الخليفة في شؤون الدولة أمام نفوذ السلطان ، لقد كانت سلطة الخلفاء اسميةً تماما، وإنما الحاكم الفعلي للدولة هو السلطان ، ويَحْرُصُ السلطان في مبايعته للخليفة على أن يُفوِّض المبايعُ إليه مقاليدَ الأمور ، وهي لفتة ذكية من المماليك ، إذ كانوا يجعلون الخليفة يَقِرُّ بملكهم في الوقت الذي يبايعونه فيه ، ويكون إقرارُه بسلطنتهم جزءا من مشروعية بيعته، فإن نَقَضَ فإنما ينقض على نفسه ، ولقد ظل هذا الوضع سائدا حتى آخر

---

(١) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٣٠

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٣٠

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصر المملوكي .

يتضمن العهد السابق بعض الجوانب الأساسية ، من بينها ما يتعلق بالحكم والجهاد، نستطيع أن نلخصها كما يلي :

الأول : الوصية بتقوى الله والعدالة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتباع أحكام الله والتمسك بالقرآن والسنة . يقول بهذا الصدد : « هذه الوصايا تذكرة للخاطر الشريف وحاشاك من النسيان ... وعندك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ما ضل من تمسك بهما ولا مان ، فاتبع أحكام الله يوسع الله لك في ملكك » .

الثاني : الوصية بالحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وخصوصا بيت المقدس إلى جانب مكة والمدينة ، وهذا ما يثير الإعجاب في قلوب المسلمين اليوم لأن الدفاع عن الأراضي المقدسة من اعتداء الكفار كان جزءا من عهود السلاطين في ذلك العصر، ولذا كان الحفاظ على سلامتها فرضا مشروعا على المماليك ، ونص العهد يذكر ذلك بوضوح كما في قوله : «وأجمل النظر في بيت الله الحرام وحرم رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ... والقدس الشريف الذي هو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال فزد تقديسه »[1] .

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص ١٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢

الخلافات السياسية

مسألة الصراع على السلطة والنفوذ قديمة في التاريخ الإنساني[١]، كانت مستمرةً في العصر المملوكي الثاني ، إذ وقعت آنذاك بعض الخلافات السياسية بين المماليك أنفسهم للحصول على عرش السلطنة ، وحسبنا دليلا على اضطراب عهود هؤلاء المماليك أن المدة التي حكموها لم تزد في مجموعها الكلي على ١٣٤ سنة، وهي مدة قصيرة بالنسبة إلى ذلك العدد الكبير من السلاطين (خمسة وعشرون سلطانا) على حين عمَّرت الدولة المملوكية الأولى نحو ١٣٢ سنة[٢].

من الأحداث التي تدل بوضوح على تلك الخلافات ، عندما أمّن السلطان الملك الظاهر (برقوق) أهلَ دمشق ، في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذي الحجة ، سنة ٧٩١ هـ ، بعد خروجه من الكرك بعد خلعه من السلطنة[٣] ، خلا الشيخ شهاب الدين بن القرشي[٤] وجردمر الطاربي[٥] ، يقول : «هذا أمان الله سبحانه

---

[١] الأيوبي - آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، ص ٤١

[٢] طرخان - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١ - ١٠

[٣] كان قد ثار عليه يلبغا الناصري نائب حلب ، فانهزم الظاهر برقوق وفر من قلعة الجبل في الخامس من جمادي الأولى سنة ٧٩١هـ ، ثم قبض يلبغا على برقوق ، وسجنه في الكرك ، بعد ذلك حصلت معارك بين يلبغا الناصري والأمير منطاش انتهت باستلام منطاش للأمور . في هذه الأثناء تمكن البرقوق من الخروج من الكرك ، فخرج وانضم إليه مماليكه وكثير من العرب ، وكانت له وقعات مع أهل الشام انتهت برجوعه إلى السلطنة مرة ثانية ، وقد قتل منطاشا وأتى برأسه فعلقت على باب زويلة بالقاهرة ، القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٥

[٤] القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر بن القرشي ، قاضي القضاة بدمشق ، وفي يوم الإثنين رابع شهر جمادي الأولى تمثل الأمراء الذين أحضروا من الشام بين يدي السلطان وهم : ألابغا العثماني الداوادار حاجب دمشق ، وشهاب الدين أحمد بن عمر القرشي قاضي القضاة بدمشق ، فلما تأملهم السلطان صار يوبخهم ويقرعهم ويبكتهم ، وطول معهم الحديث ، وكانوا قد أفحشوا في مقاتلته=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعالى ، وأمان نبيِّه سيدنا محمد نبي الرحمة ، وشفيع الأمة ، وكاشف الغُمَّة صلى الله عليه وسلم» . ويبدو واضحا من خلال بداية نسخة الأمان هذه أن السلطان حاول أن يلفت أنظار الناس إليه باعتماده على اسم الخالق ورسوله وإن كان ما فعله تبعا لهواه أو طبقا لمصلحته الشخصية ، وهذه الطريقة من الكتابة قد سلكها معظم الأمراء والسلاطين في ذلك العصر . وقوله أيضا على ذلك النحو « ... لهم ذمة الله تعالى وذمة رسوله سيدنا محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم » ، وقوله «فليحضروا واثقين بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبهذا الأمان الشريف »[١] .

وعدم إدخال الشخصين السابقين في عِداد من أمّن عليه ، خير دليل على أن نسخة الأمان هذه لم تكتب إلا لِتُشْبِعَ طموحات برقوق السياسية ، وأنه لا بد أن يستغل هذه الفرصة لجذب قلوب الناس إليه لأن عصره طَفَحَ بالثورات والفتن منذ أوائل سلطنته .

وكانت الخلافات والفتن التي تحيط بهذا السلطان ابتداءً من قبل سَلطنَتِه إلى آخر مدة سلطنته الثانية ، تعطينا صورة واضحة المعالم للاضطرابات وعدم الاستقرار في البلاد في ذلك العصر . وبعد خروجه من السجن ، قصد إلى دمشق

=لما حاصر الشام حتى ان القاضي ابن القرشي كان يصعد على أعلى سور دمشق وينادي أهلها بأعلى صوتها : «إن محاربة برقوق أوجب عليكم من صلاة الجمعة» ... وآخر الأمر سلم برقوق لبن مشكور - ناظر جيش دمشق - إلى شاد الدواوين فعاقبه بالعصر والضرب ، فالتزم أن يحمل سبعين ألف درهم من الفضة فأفرج عنه ، ورسم بسجن الباقين فسجنوا ، أنظرابن الصيرفي - نزهة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ، وأنظر القلقشندي - صبح الأعشى، ج ١٣ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦

[٥] الأمير جنتمر أخو طاز والذي كان منطاش جعله نائب دمشق ، أنظر القلقشندي - صبح الأعشى، ج ١٣ ، ص ٣٤٥

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في جمع من أعوانه ، وينتقل برقوق من نصر إلى نصر، ويتمكن أخيرا من التغلب على معارضيه ، وبُوْيَع برقوق لمرة ثانية للسلطنة[١] ، وكتب نسخة الأمان هذه موجهة لأهل دمشق الذين كانوا يعارضونه[٢] .

وعلى أية حال فإن السلطان قد تلطف بأهل الشام مع قدرته على دَوْسِ ديارهم إذ يقول :« نحن نُعَرِّفُهُم أن هذه أماننا بعد صبرنا عليهم نيفا وأربعين يوما مع قدرتنا على دوس ديارهم وتخريبها ، واستئصال شأفتهم ، لكنا مَنَعَنَا من ذلك الكتاب العزيز والسنة الشريفة فإننا متمسكون بهما »[٣] .

وأخيرا لجأ برقوق إلى أسلوب التهديد لمن لا يطيع أمره وخرج عليه من أهل الشام إذ يقول : «فليستدركوا الفارط قبل أن يَعَضُّوا أيديهم ندما ، وتجري أعينهم بدل الدموع دما ، وهذا منا والله أمان ونصيحة في الدنيا والآخرة ، والله تعالى رب النيات ، وعالم الخفيات ، يعلمون ذلك ويعتمدونه ، والله تعالى يوفقهم فيما يبدئونه ويعيدونه »[٤] .

---

[١] ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٤٣ ، ٣٢٢ - ٣٧٠ ، وانظر البخيت - مملكة الكرك في العهد المملوكي ، ص ١٥ - ٢٤

[٢] ومما أثار الدمشقيين ضد السلطان وقواته، أن السلطان أرسل حملة لحرب الثائرين ، غير أنه ما كادت هذه الحملة تصل إلى دمشق في عام ٧٩١هـ حتى أخذ رجالهايعبثون بأحيائها ويفسدون فيها، وفي ظاهر المدينة، دارت رحى معركة حامية انتهت بانتصار يلبغا وحلفائه واستطاع الثوار أن يدخلوا دمشق وأن يحتلوا قلعتها ، أنظر طرخان - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٩

[٣] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧

[٤] المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

المعاهدات

أما ما يتعلق بالسياسة الخارجية ، فإن كثيرا من المعاهدات تُعْقَد بين سلطنة المماليك والبلدان المجاورة لها ، ومن الواضح أن هذه الرسائل تختلف تماما عن الرسائل الديوانية الأخرى ، بحيث تحميد الخالق ، والثناء عليه، ومدح السلطان لا يكون جزءا مهما فيها، وإنما تهتم بالأمور المتعاهد بها بين الطرفين أو الأطراف المعنية، ومثال ذلك المعاهدة الثنائية التي عقدت بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في ٧ رمضان سنة ٨٣٣ هـ، وقد ضمت اثنين وثلاثين شرطا من الشروط التي أرسلها حاكم رودس الذي قام بالتوسط بين الطرفين للصلح ، وقد كُتبتْ هذه المعاهدة في القاهرة ، ووقّع عليها السلطان بالختم السلطاني بعد أن أضاف إليها الشرط الثالث والثلاثين الذي ينص على توفر الأمن والحماية للأراضي المملوكية من أي اعتداء أراغوني ، ثم أرسلت إلى البلاط البرشلوني لختمها هناك أيضا ، وقد جاء فيها :« ما تَذَاكَرَ بين مولانا السلطان وبين ملك أركون وبين جميع رعيتهما ومن هو تحت أمرهما ، يكون صلح ثابت ومحبة إذا حصل الاتفاق وبسبب الصلح يكون جميع ما جرى ووقع في الأنفس والأموال والمخاصمات وبكل ضرر وقع وصدر على أي قصد كان في الأيام الماضية تُذكر بين الفصول الآتي ذكرهما ، وبعد الصلح يكون كل من المدّعين بدين مخلصين والماضي ما يدق إلا إذا ظهر بِوَرَقَتِه بيد المدعين أمن أو التزام على أحد في الزمان الماضي ، ويظهر ذلك بخطاط أو بخط يد المديونية ، فبسبب ذلك يكون للذي يحاضر الحق أن يطالب بحقه من الحجاج الذين عليهم الحق ولا يطالب غيرهم»[١].

---

[١] حياة ناصر – العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية ، ص ٢٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نص المعاهدة السابق يكشف بكل وضوح عن رغبة المماليك في إرساء قواعد للعلاقات الطيبة مع الملك الإسباني قائمة على التعاون ونبذ الخلافات لمصلحة الطرفين، وخاصة في الميدان الاقتصادي بينها.

وإذا تأملنا البند التالي من المعاهدة وجدنا أن سياسة المماليك في الحفاظ على ازدهار الأسواق المملوكية بمختلف المنتَجات والبضائع وعقد الصفقات التجارية مع بلدان العالم كانت سياسة حكيمة إذ إن المحافظة على سلامة التجار الأجانب وقيام الموانى والسواحل التابعة للسلطنة بنجدة هؤلاء الزوار في حالة تعرضهم لأي طارئ، وإعانتهم على تفريغ حمولة مراكبهم تشكل أساسا مهما في تشجيع حركة التبادل التجاري العالمي، علما بأن التجارة هي أهم مصدر من المصادر الاقتصادية لبلد ما، وجاء في هذا البَنْد :

« ان جميع رعية ملك أركون يكونون آمنين مطمئنين، ويمكنهم العبور والإقامة على حسب اختيارهم بجميع مواليهم ومتاجرهم وبضائعهم وأموالهم في جميع مملكة مولانا السلطان، ويكونون مأويين مرعيين ويمكنهم البيع والشراء حسب اختيارهم ورضاهم في جميع المتاجر والبضائع التي تُباع وتُشتَرَى من أي صنف كان ويُمْكِنُهم من شراء المؤن وجميع ما يحتاجون إليه »[1].

على الرغم من بذل المماليك كل جهودهم للحفاظ على سلامة وأمن الدولة من كل أشكال العداوة التي تهدف زعزعة استقرارها، وفي الوقت نفسه فإنهم لم يهملوا واجباتهم نحو جيرانهم من الملوك، ولذلك وجدنا أنهم على اتصال دائم فيما بينهم. على سبيل المثال، تبادل الرسائل بين صاحب تونس المتوكل على الله أحمد ابن أبي عبدالله بن أبي بكر والملك الظاهر برقوق، وذلك في سنة ٧٩٢هـ، وقال

---

[1] حياة ناصر - العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها :

« من عبدالله المتوكل على الله ، أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبدالله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ، أعلا الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام » ثم قال « إلى أخينا الذي لم نزل نشاهد من إخائه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا انتزاح ، ونثابر من حفظ عهده، والقيام بحق وده ... »[١] .

فأرسل الملك الظاهر برقوق رسالة جوابية إلى صاحب تونس المتوكل على الله أحمد بن أبي عبدالله ، وهو من إنشاء علاء الدين ، قال فيه : « من عبد ربه ووليه السلطان الأعظم المالك ، الملك الظاهر ، الأجل العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المثاغر المؤيد ، المظفر ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ... » ، وقال « ولما تمثل إلينا رسولكم المكرم ، وصاحبكم الكامل المعظم ، ذو الأصل الطاهر ، والنسب الباهر ، والرأي السديد ، والبأس الشديد فلان. لا زال علي مقامه حسنا ... »[٢] .

---

[١] ابن الفرات - تاريخ الدول والملوك ، ج ٩ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٨ ، وأنظر القلقشندي - صبح الأعشى ج٨ ص ٧٩ - ٨٤

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤

التواقيع

وهناك نوع آخر من الرسائل الديوانية له علاقة بالحياة السياسية في ذلك العصر ، وهو ما يسمى (التواقيع) . فكان للتواقيع معنى خاص فى العصر العباسي ، وهي الكلمة الوجيزة التي يوقع بها الخليفة أو الوزير مثلا على حواشي ما يرفع إليه من قصص ومظالم ونحوها ، ويغلب عليها الإيجاز واجتماع المعاني والسهولة .

وفى عصر المماليك بقيت بقية من هذا المعنى للتوقيع . فقد أطلق لفظ الموقعين على كتاب الدست ، وذلك لأنهم يوقعون على حواشي القصص في مجالس السلطان . وقد أطلق (التوقيع) في عصر المماليك أيضا على أحد ضروب الرسائل الديوانية ، وكان ضربا من (التقاليد) ، والفرق بينهما على ما ذكره ابن فضل الله العمري في (التعريف)[1] ، أن التقاليد تكتب لكبار الموظفين عند تعيينهم في مناصبهم ، والتواقيع للأصغر منهم البالغين شأوهم .

وأما الفرق بين العهود والتواقيع من حيث اختيار العناصر والكلمات ، فإن العهود حافلة بالمدائح للسلطان بالصفات المحمودة كالشجاعة والعدالة والعفة وغيرها بلغة سهلة بعيدة عن التصنع والتكلف ، وأما التواقيع فإنها لا تهتم بالمدائح للسلطان، ولغتها حافلة بعناصر التصنع والتكلف .

---

[1] ابن فضل الله - التعريف ، ص ١١٥ - ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثال التوقيع ما أنشأه تقي الدين بن حجة الحموي ، «باستقرار (زين الدين عبدالرحمن بن الخراط) في كتابة السر بثغر طرابلس ، وذلك حينما كان ابن حجة منشئ ديوان الإنشاء بالقاهرة على عهد المؤيد شيخ المحمودي» ، ومنه قوله :

«وبعد ، فمنهل إنعامنا الشريف قد حَلَّيْنا لأهل الأدب مَوْرِدَه ، لتصير عقودَ إنشائنا بجواهر منثورة منضدة ، وتَطْلِعُ كُلُّ براعة باستهلالها في أشرف المطالع ، وتَسْكُنُ النزاهةُ طِباقَ البديع للمقابلة فَيَتَنَزَّه الناظر والسامع ، ويقوم الاستخدام بما يجب عليه من واجب الخدمة ، ويُزِيل الاقتباسُ بنوره عن أهِلَّتِه كُلَّ ظُلمة ، وتجول خيول الاستطراد في رد العجز على صدره ، ويَحْصُل لأهل الأدب في زماننا تمكينٌ فيظهر الافتنانُ في نظمه ونثره ، ويصيرُ لفقه المذهب الكلامي في أيامنا الشريفة توشيحٌ ومماثلة ومناسبة ، ويَبْرُزُ في توشيح التسليم من غير اعتراض مناقضة وموارية ، ويَجْنَحُ العصيانُ إلى الدخول تحت الطاعة ، ويُسْمَعُ القولُ بموجبه من غير مراجعة في كل براعة ، ويَزُوْلُ التَّجاهُلُ بالعارف ، ويصيرُ التسجيعُ والمواربَةُ عند إيجازه بالمواقف»[1] .

---

[1] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة الديوانية والحياة الدينية

١

إهتمام المماليك بشؤون الدين

على الرغم من أن الرسائل الديوانية تركز على الأحوال السياسية والمناسبات الرسمية للدولة آنذاك ، فإنها لم تكن بمعزل عن تسجيل كل ما يتعلق بالأمور الدينية .

إن إهتمام المماليك بالدين الإسلامي وتمسكهم بتعاليمه ظاهر من خلال العهود والمبايعات وغيرها من الرسائل التي امتلأت بآيات القرآن الكريم والنصح والإرشاد والمواعظ التي تنص عليها تعاليم الدين الحنيف .

ونلمس اهتمام المماليك بشؤون الدين حين نرى أن مشيخة الشيوخ في بلاد الشام كانت تابعة لشيخ الشيوخ ومركزه بمصر ، وهذا الأخير يعين بمرسوم ملكي ، وكان هذا المرسوم يمكن الشيخ من بسط يده على مواريث الصوفية وأوقافهم بحيث لا يكون لأمين الحكم و لا لديوان المواريث معه في ذلك حديث ، ولا يكون لأحد من الحكام لا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه[١] .

كما اهتم المماليك كثيرا بشؤون المساجد واعتنوا بها عناية فائقة ، ربما فاقت عنايتهم بقصورهم ومؤسساتهم الدنيوية ، ومن هذه المساجد ما أقامه السلاطين

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها ما أنشأه الأمراء والأفراد[١] . وبلغ من أهمية بعض هذه المساجد أن السلطان كان يتدخل بنفسه لتقليد أحد الشيوخ الخطابة فيها ، كما فعل السلطان منصور عبدالعزيز بن برقوق عندما قلد شهاب الدين بن حاجي خطابة جامع بني أمية في دمشق ، من إنشاء القلقشندي وذلك في سنة ٨٠٨ هـ ، يقول بعد أن يحمد الله الذي اطلع شهاب الفضائل في سماء معاليها ، وزين صهوات المنابر بمن قرت عيونها من ولايته المباركة بتواليها :« ولا تقصّر عن تبليغ المواعظ حبات القلوب أفهامها ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي نبه القلوب الغافلة من سناتها ، وأيقظ الخواطر النائمة من سباتها ، وأحيا رميم الأفئدة بقوارع المواعظ بعد مماتها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين علا مقامهم ... »[٢].

وزاد قائلا « فإن أولى ما صُرفت العناية إليه ، ووَقَع الاقتصار من أهم المهمات عليه - أمر المساجد التي أقيم بها للدين الحنيف رسمُه ، وبيوتِ العبادات التي أمر الله تعالى أن تُرفعَ ويُذكر فيها اسمُه ، لاسيما الجوامعُ التي هي منها بمنزلة الملوك من الرعية ... »[٣] .

إن هذا المرسوم يوضح لنا مدى أهمية الأئمة والخطباء والمدرسين في المساجد عند المماليك ، فضلا عن ذلك فإنهم يعينون من قبل الدولة ، ودأبوا على التوصية بالاجتهاد في تبليغ العلم ، وكشف المشكل من مسائله ، وقد نوه السلطان أجمل تنويه بالخطيب ورفعه إلى أعلى الدرجات ، وقال فيه أيضا : « جامع دمشق الذي رَستْ في الفخر قواعِدُه ، وقامت على مَمَرِّ الأيام شواهِدُه ... ولم تزَلْ الملوكُ تَصْرِفُ

---

[١] طرخان - مصر في عصر المماليك الجراكسة ، ص ٢١٤

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٧٤

[٣] المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العنايةَ إلى إقامة شعائر وظائفه ، وتَقْتَصِرُ من أهل كل فن على رئيس ذلك الفن وعارِفِهِ ، فما شَغَرَتْ به وظيفةٌ إلا إختاروا لها الأعلى والأرفع خصوصا وظيفة الخَطَابَةِ التي كان النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بها متصدِّيا »[١].

كما بدأ بتعداد صفات الخطيب الذي اختاره السلطان للخطابة في هذا المسجد، شرف العلماء العاملين ، أوحد الفضلاء المفيدين ، قدوة البلغاء المجتهدين ، حجة الأمة، عمدة المحدثين ، فخر المدرسين ، مفتي المسلمين ، لسان الناظرين ، بركة الدولة ، خطيب الخطباء ، مذكر القلوب ، منبه الخواطر ، قدوة الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين ... وهكذا يستمر منشئ هذا المرسوم بإغداق الصفات على الخطيب بطريقة مبالغ بها كثيرا.

وأكثر ما تبرز كلمات النصح والإرشاد في رسائل التولية تلك التي يصدر لها السلاطين حيث تحث الموظفين على التقوى ونشر العدل بين الناس والعناية بأهل الدين من علماء ومشايخ .

وقد كان القضاة والخطباء والأئمة محط مدح وثناء من قبل المنشئين الذين يحررون الرسائل في توليتهم للمناصب المذكورة إذ يصفونهم بالزهد والتقوى والصلاح والعلم الوفير وغيرها من المحاسن والصفات الحميدة التي أهلتهم لنيل هذه المناصب عن استحقاق ومعرفة .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٧٤ - ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢

التواقيع بقضاء

ومن الرسائل الأخرى التي تدل على اهتمام المماليك بأمور الدين في ذلك العصر ، التواقيع بقضاء . وهذه التواقيع تتضمن النصح والإرشاد من قبل السلطان لمن يقوم بعمل القضاء ، وأن لا بد أن يتمسك بالقرآن والسنة في حكمه ، كما نصح القاضي شرف الدين مسعود[١] عند توليته بالقضاء :« ... ورفع منار العلم على كل منار ، وبوأ أهله من جنات إحساننا غرفا . وأباح دم من ألحد فيه عنادا أو وجه إليه طعنا ، وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى : {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا }[٢] . وألهم الصواب في اختيار من لم يزل لهذه الرتبة معدا ومن رجالها معدودا ، وصرف وجه إقبالنا إلى من ارتضيناه للمسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مسعودا »[٣].

بعد ذلك تعرض للحديث عن الصفات التي ينبغي توافرها في من يتولى منصب القضاء بقوله : « ... اعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شرائعه ، ونصح للرعية فيمن ولاه عليهم وأعطى منصب الشرع حقه بتقديم أكابره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يقضي لصاحبها بالنجاة من النار ، ويسجل لقاءها

---

[١] هو مسعود بن شعبان بن إسماعيل ، شرف الدين ، أبو عبدالله الحساثي الطائي الحلبي الشافعي، ولي قضاء حلب ثم حمص ، ثم دمشق ، وتوفي بطرابلس سنة ٨٠٩ هـ ، أنظر السخاوي - الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ١٥٦، والصيرفي - نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ١١٥ ، وأنظر القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١٢ ، ص ٤٨

[٢] سورة النور : ٥١

[٣] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالثبوت في ديوان الأبرار ، وأن محمدا عبده ورسوله الذي شرط الإيمان بالرضا بحكمه وأوجب طاعته أمرا ونهيا واستجابة وتحكيما ، فقال تعالى : {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}[١] ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون، وبآثارهم مقتدون ، وعلى آله وصحبه الغر الكرام الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، صلاة لا يختلف في فضلها اثنان ، ولا يتنازع في قبولها خصمان ، وسلم تسليما كثيرا »[٢] .

وعلى القاضي الذي تبوأ هذه المرتبة العالية عند الناس أن يتبع الصواب أنّى توجه « ويقتفي أثرَه حيث سار ، وإذا ظهر له الحق قضى به ولو على ابنه وأبيه ، وأعزّ أصدقائه وأخصّ ذويه ، غير مُفَرِّقٍ في فصل القضاء بين القوي والضعيف ، والوضيع والشريف ، ولا مميز في تنفيذ الحكم بين الغني والفقير ، والسُوْقَة والأمير ، ولْيُسَوِّ بين الخصوم حتى في تقسيم النظر أليهم ، كما في موقف الحكم ، وسماع الدعوى ، ورد الأجوبة فيما لهم وعليهم ، ولْيَسْتَخْلِفْ من النواب من حَسُنَتْ إليه سيرته ، وحُمِدَتْ عنده طريقتُه ، ويُوْصِ كُلاً منهم بما نوصيه به ويبالغ في تأكيد وصيته »[٣] .

---

[١] سورة النساء : ٦٥

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٤٩

[٣] المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

مضمون التواقيع له علاقة بالدين

وتبرز من خلال ترتيب الوظائف في العصر المملوكي الثاني أن معظم ما يكتب فيها من تواقيع له علاقة بالدين أو بعبارة أخرى أن التواقيع تكون مليئة بعبارات النصح والإرشاد ، وبالذات تلك التي تكتب لمن يتولى منصبا دينيا ، ومن تلك الوظائف قضاء العسكر وإفتاء دار العدل ، وتتكون الوظيفتان السابقتان من أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، والحسبة : لأن عمل متوليها يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خاصة في موضوع الأسعار والمكاييل والموازين .

وكذلك وكالة بيت المال المعمور ، فكونه تحت حراسة رجال الدين (القضاة) دليل آخر على اهتمام المماليك بأمر الدين والتزامهم بتعاليمه ، ومن تلك التواقيع ، توقيع بوكالة بيت المال ، أنشأه القاضي تاج الدين البارنباري[1] للقاضي نجم الدين أبي الطيب ، قوله بعد التحميد ، مستمدا معاني الحمد من التوقيع وغرضه قائلا: « الحمد لله الذي جعل الطيّبات للطيّبين ، وهَدَى بالنجم المنير السبيلَ المبينَ، وعَدَقَ بأئمة الدين مصالح المسلمين ، وآتانا بتفويضنا إليه ، وتوَكُّلِنا عليه ، شرفًا في الشأن وقوّةً في اليقين ، ونحمده على أن أعان بخيره وهو خير معين ، نشكره على أن بصرنا في الإرادات بالملائكة المقربين ، ونصرنا في الولايات ، بالقوي الأمين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أنوارها في القلب مشرقة على

---

[1] نسبته إلى (بارنبار) قرية بالمزاحمتين بمصر ، وهو محمد بن عبدالوهاب بن محمد البارنباري الشافعي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ ، وقد أناف على التسعين ،أنظر السخاوي – الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص١٣٨ ، والصيرفي – نزهة النفوس ، ٣ : ١٧١ ، والقلقشندي – صبح الأعشى ، ١٢ : ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفحات والجبين ... وسلم تسليما كثيرا »[1].

ويبدو من الفقرة السابقة أن وظيفة وكالة بيت المال تحتاج إلى من يتحلى بالصفات الحميدة ، إذ بيده ثروة المسلمين والبلاد . وبعد ذلك تذكر الرسالة أهمية هذا المنصب والأمور التي يجب أن يراعيها، وتكون شاغله خلال قيامه بهذه الوظيفة المهمة ، بقوله :

« وبعد ، فأكرمُ التفويض ما صادف محلا ، وأبرك الولايات ما وجد قدرا مُعَلًّى... وأحق الولاة بإعلاء منصبه مَنْ أقبلتْ عليه وجوهُ الإقبال حين تولى ، وأولى الولايات بإجمال النظر وإمعانه ، في تشييد شأنه ، وتمكين مكانته ومكانه ، وحفظ حوزته من سائر أركانه - وكالة بيت المال المعمور التي بها تصان الأرض المقيسة ، ومنها تُسْتَبْصَرُ الآراء الرئيسة ، وبها يُؤْمَنُ الاستيلاء على المحالِّ والأبنية من كل جائر ، وبها تُزاد قيمُ المبيعات مما هو لبيت المال ما بين عامر وداثر ، وإلى متوليها تأتي الرغبات ممن يبتاع أرضا ، وبه تمضى المصالح وتقضى، وبه يظهر التمييزفي الثمن الأرضَى ، وهي في الشام فخيمة المقدار ، كريمة الآثار ، مَرْضِيَّةٌ بالربح في كل أرض... وصدارةٌ وَرَدَ بها مَنْهَلَ الكرام البررة »[2].

وكذلك ذكر هذا التوقيع بعض القوانين الفقهية الإسلامية التي يجب اتباعها خلال قيام المرء بهذه الوظيفة إذ يقول :

« وليحرر ما يباع من أملاك بيت المال بشروطه ولوازمه المسطورة في كتابه، ولْيَرْدَعْ من استولى على أرض باغتصابه ، فليس لعرقٍ ظالمٍ حقٌ : وهو إما بناءٌ

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٦٣-٦٤

[2] المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بإنشائه وإما غراس بإنشائه ، وما يرتجع إلى بيت المال المعمور من أرض وعقار ، وروضات ذات غراس وأنهار ، وقرى وما يضاف إلى ذلك من آثار ، فليحرر مجموعه، وليسلك في ذلك الطريقة المشروعة ، وليشفق إشفاق المتقين المجاهدين لمالهم ، ولينصح لنا وللمسلمين فهو وكيل بيت مالهم ، ومن مات ولا وارث له من عصبة أو كلالة ، فإن لبيت المال أرضه وداره وماله »[١].

٤

إنهاء الخلافات

وقد تكتب الرسائل الديوانية لإنهاء الخلافات في أمر من أمور الدين ، ومثال ذلك أنه في شهر محرم من سنة ٨٧٥ هـ حدثت فتنة كبيرة بين الناس وكثر الجدل بين العلماء في القاهرة في أمر الشيخ العارف بالله تعالى عمر بن الفارض[٢] ، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها في قصيدته واعترضوا عليه في ذلك وصرحوا بفسقه وتكفيره ، ونسبوه إلى من يقول بالحلول والاتحاد ، وتعصب لابن الفارض كذلك بعض الأمراء والسلطان الذي أمر كاتب السر بأن يكتب سؤالا إلى الشيخ زين الدين زكريا الشافعي[٣] حول هذه المسألة، وقد كتب كاتب السر رسالة جاء فيها:

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٦٦

[٢] عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل ، المصري المولد ، والدار، وتوفي سنة ٦٣٢هـ ، أنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٥ ، ص ٢١٦

[٣] زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، السنيكي ، المصري ، الشافعي ، قاض ومفسر من حفاظ الحديث ، ولد بمصر ٨٢٣ - ٩٢٦هـ ، أنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٣ ، ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«ما يقول الشيخ الإمام العلامة البحر الفهامة زكريا الأنصاري الشافعي نَفَعَ الله المسلمين به عن من قال يكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله عمر بن الفارض تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على فهمه من كلامه في مواضع مَرْجِعُها اطلاقاتٌ معلومة عن السادة الصوفية بإصطلاح أهل طريقته أم على إصطلاح أهل ملة غير الإسلام ، فما الجواب على ذلك أفتونا مأجورين»[1].

وكتب زين الدين زكريا ردا حول المسألة قال فيه :

«يحمل كلام هذا العارف رحمه الله عليه ، وتقع بركاته على إصطلاح أهل طريقته بل هو ظاهر فيه عندهم إذا اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الإصطلاحي مجاز في غيره كما هو مقرر في محله ولا ينظر إلى ما يُوْهِمُه تعبيرُه في بعض أبياته في التائية في القول الحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك في شيء بقرينتي حاله ومقاله المنظوم في تائيته من أبيات القصيدة»[2].

ويواصل الشيخ زكريا الشافعي في الإدلاء بدلوه والإجابة عن سؤال السلطان مستندا إلى الدلائل والبراهين فيقول :

«وقد يصدر العارف بالله إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته وصفاته في صفات ، وتغيب عن كل ما سواه عبارات شعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التي يرقى إليها كما قال جماعة من علماء الكلام ، ولكن ينبغي كَتْمَ تلك العبارات عن من لم يدركها ، فما كل قلب يصلح للسر

---

[1] عبدالتواب – قايتباي المحمودي ، ص ٣٤

[2] المرجع نفسه ، ص ٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا كل صدف ينطبق على الدُّرِّ ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال ، وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قال بعضهم في المعنى :

فإذا كنتَ بالمَدارِكِ غِرًّا ثم أبصرتَ حاذِقا لا تُمَاري

وإذا لم تَرَ الهلالَ فسَلِّمْ لأُناسٍ رأوه بالأبصـــــار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلي صبابتي صَبًا معي لكنه ما ذاقها

والحالة هذه والله يمنح بفضله ويمنع من يشاء بعدله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وكتبه زكريا بن محمد الأنصاري الشافعي »[1] .

وبعد هذه الإجابة الشافعية انتهى الخلاف والجدل الذي كان سائدا في البلاد بسبب المتعصبين على ابن الفارض والمتعصبين له .

ومما يسترعي الإنتباه أن الرسالة الموجهة إلى الشيخ زين الدين زكريا الشافعي كانت في منتهى البساطة ، وتدخل مباشرة في صلب موضوع طلب الإفتاء عن المسألة السابق ذكرها، وهذا يختلف تماما عن الرسائل الديوانية الأخرى التي ناقشناها سابقا .

---

[1] عبدالتواب - قايتباي المحمودي ، ص ٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة الديوانية والحياة الاجتماعية

١

توزيع الأراضي ووفاء النيل

قبل البدء بالحديث عن الرسائل الديوانية وأثرها في الحياة الإجتماعية ، يجدر بنا الإشارة إلى ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في ذلك العصر ، وهي ظاهرة توزيع الأراضي وجميع موارد الدولة الأخرى إلى إقطاعات بين السلطان وأجناده ، ذلك أن هذا التوزيع قد أدى إلى نشوء طبقات إجتماعية جديدة ، إلى جانب كونه سببا رئيسيا في نشوءالنزاع بين الأمراء.

والأراضي المقطعة ثلاث درجات من حيث الري والخصوبة ووفرة الانتاج ، اختص السلطان وكبار أمرائه بأجود الأراضي على قدر منازلهم ، فهناك الأراضي (النفيسة الكثيرة التحصيل) ، وهناك الأراضي المتوسطة ، وهناك الأراضي التي تأتي في الرتبة الأخيرة تقتطع عادة لأجناد الحلقة والعربان والتركمان [١].

ويمثل الإدارة الإقطاعية التي تشرف على عملية التوزيع الإقطاعي ديوان الجيش ، ثم ديوان الإنشاء ، ورأس هذه الإدارة السلطان ، وسمي ديوان الجيش اصطلاحا باسم ديوان الإقطاع ، ويليه ديوان الإنشاء ، يتولى ديوان الجيش كتابة الوثائق الإقطاعية الأولى ، غير أن ديوان الإنشاء هو الذي يصدر الوثيقة النهائية في الإقطاع وتعرف باسم (المنشور) ، وهو الذي يتسلمه المقطع وبه يصير الإقطاع

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شرعيا في يده ، ويشار فيه إلى الإقطاع الممنوح ، واسم المقطع ومرتبته ، وكذلك يشار إلى أن الإقطاع من الصدقات السلطانية .

وهناك مناسبات مختلفة تجري فيها عملية توزيع الإقطاع ، أهمها : مناسبة تولي سلطان جديد إذ يعمل على إجراء حركة توزيع جديدة للأراضي ما بين منح وزيادة ومناقلات وإنقاص لمكافأة الأنصار وإبعاد الخصوم ، وقد يتم التوزيع عند اتساع رقعة الأرض ، سواء أجاء عن طريق الفتح الخارجي أم استصلاح الأراضي البور وتوفير وسائل الري ، وقد يرى السلطان ضرورة توزيع الأراضي بشكل عام وشامل، وذلك على خلاف الأحوال التي يقع فيها التوزيع الجزئي ، وفي هذه الحالة يصدر السلطان أوامره لمسح البلاد كلها[١] .

لقد ارتبط الوضع الزراعي في عموم البلاد بتوافر وسائط الري ، لذلك كان اهتمام الناس كبيرا بوفاء النيل حيث اعتماد البلاد الكلي على ما يوفره من مياه للسقي وإلا أصاب الجدب البلاد ، وعرض الناس للهلاك والفقر والمجاعة ، كما هو يؤثر على تزايد أسعار الأطعمة وانخفاضه [٢] .

ولذلك وجدت الرسائل الديوانية التي تكتب عن فيضان النيل ووفائه وكسر خليجه ، فيفيض الكتاب في وصف بركاته ويمنه وطيب أيامه ، وما تفيد البلاد من مائه ، ويصفون مجراه وشواطئه وآثاره ومناظره والاحتفال بوفائه إلى غير ذلك ، وحكى تقي الدين بن حجة الحموي في كتابه (خزانة الأدب) عن ذلك فقال :

---

[١] طرخان - مصر في عصر دولة المماليك ، ص ٢١٩

[٢] ابن قاضي شهبة - تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج ٣ ، ص ٥٢١ - ٥٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«رسم لي في الأيام الشريفة المؤيدية سنة تسع عشرة وثمانمائة أن أنشئ رسالة بوفاء النيل المبارك ، لم أُسْبَق إليها ، ولا حامَ طائرُ فكرٍ عليها ، وأحضر مولانا المعز الأشرف القاضوي الناصر محمد بن البارزي الجهني الشافعي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية قطعة من إنشاء القاضي الفاضل بوفاء النيل ، وقُرِئَتْ على المسامع الشريفة المؤيدية ، وحُذِّرتْ من التعرض إلى شيء من ألفاظها ومعانيها ، فأنشأت رسالةً حُكِمَ لأبي بكر بها على كل فاضل بالتقديم »[١].

ومما جاء في بشارة ابن حجة الحموي يصف خُضرة الأشجار والزهور عقب وفاء النيل فقال : «وراق مديدُ بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سُلافتُه الخمرية فَخَدَمَتْهُ بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب ، فالق النوى والحب ، فأرضع جنين النبت وأحيا لها أمهات العصف والأب ، وصافحته كفوف اللوز فختمتها بخواتيمه العقيقية ، ولبس الوردُ تشريفةً وقال : أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية ، ونسي الزهري بحلاوة لقائه مرارة النوى ، وهامت به الشعراء فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوا ، واستوفتْ الأشجارُ ما كان لها في ذمة الري من الديون ، ومازج الحوامض فهام الناس بالسُّكَّر والليمون »[٢].

ونلاحظ كيف أن هذه البشارة صورت فرح الأرض والناس واستبشارهم بالخير ، وابتعاد شبح المجاعة والحاجة عن الناس الذين هاموا بالسكر والليمون وما طاب لهم من أطعمة ، وهذه كلها تأتي بفضل فيضان نهر النيل .

---

[١] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٢١

[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢

التجارة

وقد حرص سلاطين المماليك على تحسين معيشة الناس ، ونفذوا بعض الخطوات المهمة في هذا الصدد ، منها محاولة العمل على تنشيط أمور التجارة إذ عملوا في كل اتفاقية يعقدونها مع الإفرنج على تأمين أمور التجار وتنقلاتهم وحرية حركتهم بين مدن الشام .

كما أمر السلاطين المحتسب وهو الشخص الموكّل بالمراقبة والإشراف على مختلف الحِرَف والصنائع بتفقد أحوال العامة ، ومراقبة ضبط الموازين والأسعار ، وملاحظة العملة ، وأمر الدينار والدرهم ، والتغلب على مشكلة تزوير النقود وتزييفها ، كما يأمر بمنع احتكار أية سلعة ولا سيما تلك التي تتعلق بقوت الشعب اليومي «فليباشر ذلك أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، سالكا من حسن الطريقة ما يُحمَد به ويُشكَر، ويَسُرُّه حين تُتْلَى سُوَرُ محاسنه وتُذكَر ، متفقدا أحوال العامة ومعايشها في كل آن ، ملتفتا في أمر ما يُكال أو يُوزَن إلى قوله تعالى {وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان} مشَمِّرًا عن ساعده في الإجراء على العوائد المستَحَبَّة ، محترزا فيما يأمر به ، فإن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة ، ولينظر في الدقيق والجليل ، والكثير والقليل ، ولْيَسْتَكْثِرْ الأخبارَ ، وليستعلِمْ الأسعار ، ولا يَغْفُل عن تعاهُدِ السُوْقة أناء الليل وأطراف النهار ، وليلاحظ أمر السكة السلطانية بإصلاح العِيار ، وضبط أحوال النقود بمقدار ، وليقم من خدمته رقيبا على من اتُّهِمَ في صنعته أو اسْتَرَاب ، ولْيُبَالِغْ في النظر في أمر المآكل والمشارب ، فإن أكثر الداء من الطعام والشراب ، ولْيَزْجُرْ بتأديبه من افترى ، أو تلقَّى الركبانَ أو غدا في الأقوات محتكرا ، وليعلم أنه قُلِّدَ أمر هذه الوظيفة المباركة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فليَخْتَرْ من يَسْتَنِيْب ، وليُبْصِرْ كيف يسلك برعايته من حَكَمَ عليه ، فما يَلْفِظُ من قول إلا لديه رقيب ، والوصايا كثيرة وأصلها التقوى التي هي أجلُّ ما يَقْتَنِيْ المؤمن ويَكتَسِب »[1].

٣

تهنئة المجتمع بالظفر

كما أن الحوادث المهمة التي لها علاقة بالمجتمع المحلي كثيرا ما صورت من خلال الرسائل الديوانية التي يبعثها السلطان أو يتسلمها منها تدخل المجتمع في إخماد الثورات والفتن في البلاد ، إذ يعم سرور الناس بعد تغلبهم على الثوار مهنئين بعضهم بعضا .

في سنة ٨١٧ هـ ، امتنع الأمير نوروز الحافظي عن الإنضمام إلى حوزة السلطان الملك المؤيد ، وأظهر الخلاف فسار إليه السلطان الملك المؤيد بالعساكر حتى وافى دمشق ، فاعتصم نوروز بقلعة دمشق فحاصرها السلطان أياما وضايقها ، وتصب عليها المجانيق ومدافع النفط العظام ، وأحضر مدفعا عظيما من صفد فنصبه عليها ، وأحس نوروز بالظهور عليه وأظهر به ، ففتح القلعة ونزل منها، وسلم نفسه للسلطان ، ولما فُتحت القلعة وقُبض على نوروز وأصحابه كتب الشيخ تقي الدين عن السلطان الملك المؤيد مهنئا بالفتح والظفر كتابا من الشام إلى الديار المصرية بفتح الشام في السابع والعشرين من صفر من سنة ٨١٧هـ .

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٣٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيه يقول : «وسكر نُوروز بكثرة المخامرة وعربد فأذقْنَاهُ الحد إلى أن صار للرمح والسيف في جُهال جُموعه جَزْرٌ وَمَدٌّ»[١]، ومنها أيضا «وتبطن بعد ذلك بالقلعة التي هي به غير محروسة وقال إنه معتصم في برج قد شيده فتلا له لسان الحال {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة}»[٢].

وكتب كتابا آخر عن السلطان مهنئا بوقوع نُوروز في القبضة الشريفة ، ويقول فيه : «وفسدت أغذيتهم بالقلعة فعجزوا عن المعالجة بالبارد والحامي ، وثقلوا بعد ذلك على قلبها فاستفرغتهم من أفواه المرامي»[٣].

كما كتب القلقشندي إلي المقر الناصري بن البارزي كاتب السر الشريف كتابا بالتهنئة بهذا الفتح وهو بالشام ومنه : «هذا وسلطانه المؤيد قد تَدَكْدَكَ بسطوته الأطوادُ الراسخة ، ونَكَّسَ بقهره نواصي القلاع الشامخة ، ودان له بالطاعة حتى النبات والجماد ، وتتابعت فتكاته القامعة فاستأصلت شأفة أهل الفساد ، ودعا قلعة دمشق فَلَبَّتْهُ ساجدة وصاح بها مِدْفَعُهُ الغضبان فخرّت قائلة {إن كانت إلا صيحة واحدة} ، واستنزل الناكث من منيع حصنه فقلده الأغلال بعد أن كان يُقَلِّده المن ، وحاق بالماكر مكره السيئ فما لبث بعد الاستنزال آن»[٤].

---

[١] القلقشندي - مآثر الإنافة ، ج ٢ ، ص ٢١٣

[٢] المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٣

[٣] المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٣

[٤] المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤

التضييق على الناس واعتراض العلماء

وهذه الرسائل تكشف لنا عن حالة الناس الذين لا يأمنون من كل أنواع الحروب والمؤامرات ، سواء التي تصيبهم مباشرة أو بصورة غير مباشرة بسبب تنافس الملوك أو الرؤساء للحصول على عرش السلطنة ، ولأنهم يهتمون بالحفاظ على مناصبهم أكثر من اهتمامهم بأحوال المجتمع ، وكثيرا ما يعاني المجتمع من أنواع التعذيب والتضييق أثناء المحن والأحداث التي تتعرض لها البلاد ، ومن الأمثلة على ذلك ، عندما خرج شاه سوار عن حظيرة الدولة صمم السلطان قايتباي[١] على اتخاذ موقف حاسم ضده ، وقد دفعت حاجة السلطان إلى المال وخلو الخزينة منها إلى التعسف في جمع الأموال ، وضيق على أولاد الناس وأمرهم إما بالسفر أو دفع بديل للسفر ، وبعد أن أعد العدة لحملته العسكرية لم يكتب له النجاح فيها ، وزادت شوكة سوار واستولى على عينتاب وتقهقر الجيش المملوكي ، وتقوى سوار بما غنمه من الجيش المملوكي ، وعزم على الزحف إلى حلب ، فأعد رسالة كتبها إلى الرعية بحلب والشام بعد انتهاء معركته ضد جيش السلطان في ٧ ذي القعدة سنة ٨٧٢ هـ .

جاء في هذه الرسالة :« إن السبب الباعث لتسطير هذا الكتاب ، والمعنى الموجب لتحرير هذا الخطاب أن المقر الكريم العالي المولوي الأميري الكبيري الزيني المظفري[٢] أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره ، أشار إلى الأمن والأمان بالدليل

---

[١] قايتباي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري ، أبو النصر سيف الدين ، سلطان الديار المصرية من ملوك الجراكسة ، توفي بالقاهرة ٨١٥ - ٩٠١هـ ، أنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٦ ، ص ٢٤

[٢] من الألقاب التي كانت موجودة في العصر المملوكي ، القلقشندي - مآثر الإناقة في معالم=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبرهان بين التجار والقوافل وأبناء السبيل وغيرهم من أرباب البيع والشراء والفلاحين ، والحَرَّاثين والصادرين والواردين والمترددين بالمملكة الشامية والحلبية والطرابلسية وغيرهم من الغرباء وأهل البلاد بالحضور التام بين الناس والأنام... »[١] ، وزاد قائلا : « فمن حضروا فيهم يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم من غير تعارض ولا تمانع ولا تزاحم ، والله يَحْرِسُه بالملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين بمحمد وآله أجمعين، والله على ما يقول خبير »[٢]

هذه الرسالة التي بعثها سوار إلى الناس بحلب والشام تصور مقدار الخوف الذي وقع بين الناس وبخاصة التجار وقوافلهم التي كانت تتعرض للإغارة والسطو، كما وجهها إلى الفلاحين الذين تتعرض مزارعهم لغارات الجند وعبثهم ، وإلى بقية الرعية التي هالها ما وقع من حروب بين جيش السلطان قايتباي وجيش شاه سوار .

إن كثرة المعارك التي وقعت في هذا العصر كانت تكلف خزينة الدولة مبالغ طائلة لتجهيز الحملات العسكرية لقتال الخارجين عن سلطتها ، إلى جانب مقدار كبير من رواتب الجنود [٣] ، فعندما صرح السلطان قايتباي بحاجته إلى المال للإنفاق على إحدى حملاته العسكرية وأن بيت المال خالٍ ، أشار إلى وجود فائض من المال لدى كثير من الناس وإلى أن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن رغبته في أن يبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط والباقي يُوضَع في الذخيرة للانفاق

=الخلافة، ج ٢ ، ص ١٤١

[١] عبدالتواب - قايتباي المحمودي ، ص ١٤٢

[٢] المرجع نفسه، ص ١٤٢

[٣] العريني - المماليك ، ص ١٨٢ - ١٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منه على الحرب ، اعترض شيخ الإسلام على مقترح السلطان ، هذا الذي يكلف الرعية فوق طاقتها وبين اعتراضه هذا بقوله في رسالته :

« لا يحل للسلطان أخذ أموال الناس إلا بوجه شرعي ، وإذا نفد جميع ما في بيت المال يَنظر إلى ما في أيدي الأمراء والجند وحلي النساء ، فيَأخذ منه ما يحتاج إليه ، وإذا لم يف بالحاجة ففي ذلك الوقت يَنظر في المهم إن كان من الضروري في الدفع عن المسلمين ، حل ذلك بشرائط مقَدَّرة ، وهذا هو دين الله تعالى ، إذا سمعت آجَرَك الله على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإنا نخشى من الله تعالى إن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا لم لم تنهوه عن ذلك وتوضحوا له الحق ، ولكن السلطان إذا أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع لماذا يجمعنا ، ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مئونة هذا الأمر كله »[1] .

إن ما ورد في هذه الرسالة يبين لنا وجود ثلاث ظواهر في المجتمع المملوكي في ذلك العصر، أولا الموقف المتصلب لبعض رجال الدين في دفاعهم عن حقوق الرعية تبعا لما حددته الشريعة السمحة ، وثانيا ما كان يفرضه الملوك والأمراء علي الرعية من ضرائب كبيرة في أيام الحروب للإنفاق على تجهيز الجيوش ، وثالثا النفوذ القوي لرجال الدين في المجتمع حتى غدت أصواتهم مسموعة ومقبولة لدى الملوك والناس كافة ، وعلى الأخص الأمور المتعلقة بمصلحة الدين والوطن وغيرهما.

---

[1] عبدالتواب – قايتباي المحمودي ، ص ٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة الديوانية والحياة الثقافية

١

الحالة الثقافية

مما لا شك فيه أن اهتمام سلاطين المماليك بديوان الإنشاء ، عامل من العوامل التي دفعت العلماء إلى تأليف مجموعة من الموسوعات وعدد كبير من الكتب المهمة، والتي أصبحت مرجعا أساسيا للدارسين في ما بعد ، ومن تلك الكتب : مقدمة ابن خلدون - ت ٨٠٨ هـ ، وصبح الأعشى للقلقشندي - ت ٨٢١ هـ ، والخطط والسلوك للمقريزي - ت ٨٤٥ هـ ، والمنهل الصافي والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن - ت ٨٧٤ هـ ، والضوء اللامع للسخاوي - ت ٩٠٢ هـ ، والإتقان والمزهر للسيوطي - ت ٩١١ هـ وغيرها .

وقد شهد القلقشندي بأن مصر قد حظيت من فضلاء الأدباء كتابا وشعراء بما لم تحظ به مملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار ، وحوت من أهل الفضل والأدب ما لم يحو قطر من الأقطار ، فما برحت متوجة بأهل الأدب في الحديث والقديم مطرزة من فضلاء الكتاب بكل مكين أمين وحفيظ عليم[١] .

أما جرجي زيدان فيقول : «إن العالم الإسلامي مرت عليه ثلاثة قرون ، لو ذهبت اللغة العربية أثناءها وامحت أدبها لم يكن ذلك غريبا ، لكنها ظلت حية ونبغ فيها الشعراء والأدباء والمؤلفون في كل فن ، إن الفضل الأكبر في بقاء اللغة العربية

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآدابها يرجع إلى مصر والشام وهما في حوزة المماليك »[١].

وأشار د . مناهل فخر الدين في مقال لها عن الحركة الثقافية في ظل العهد المملوكي ، إلى أن هذا العصر قد تميز « بتقدم حضاري ملحوظ »[٢] ، وكأنه امتداد للعصور العباسية الذهبية ، وقد عزت د . مناهل عوامل هذا النشاط العلمي إلى ما يلي :

١ - أنه عصر حضارة مستحكمة منذ آلاف من السنين ، استحكمت فيها الصنائع وتفننت .

٢ - حرص سلاطين المماليك على صد أعداء المسلمين من التتار والصليبيين ، وعلى صيانة التراث الأسلامي ، والإبقاء على العربية لغة للدين والسياسة والعلوم.

٣ - هجرة النابغين في كل علم وفن من بغداد بعد نكبتها ، ومن الأندلس والمغرب بسبب احتلال الفرنجة لبلادهم ، ومن مدائن العلم الأخرى ، إلى مصر والشام ليحظوا بالأمن وبرعاية المماليك ، وليلتفوا حول سلطتهم الروحية ورمز وحدتهم الخلافة الإسلامية التي أفل نجمها في بغداد[٣] .

فلا غرابة أن ينشط سلاطين المماليك في رعاية العلم والأدب وتشجيع العلماء والأدباء ، ولا أدل على ذلك من حرصهم على إنشاء كثير من المدارس والمكتبات ، وتظهر القيمة الحقيقية لهذه المدارس بشكل واضح ، كما نال المدرس في هذه

---

[١] جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ١١١

[٢] مناهل فخر الدين - التعليم في ظل دولة المماليك ، ص ٣٨٣

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المدارس تقديرا كبيرا إذ كان يصدر توقيع من السلطان المملوكي بتعيينه ، وفي هذا التوقيع تضفى على المدرس ألقاب التفخيم والتعظيم ، وتقدم إليه النصائح من السلطان نفسه بأن يظهر مكنون علمه للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه ، منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته «ويربيهم كما يربي الوالد ولده»[١].

٢

تواقيع المدرسين

تتجلى أهمية العلم في ما كان يصدر من نسخ تواقيع للمدرسين في المدارس والمساجد ، ومثال ذلك ما أنشأه القلقشندي من توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية لقاضي القضاة جمال الدين الأقفهسي[٢] ، ومما جاء فيه ما يدل على أهمية العلم والمعرفة : «الحمد لله الذي زين معالم المدارس من أعلام العلماء بجمالها ، وميز مراتب الكلمة بإجراء سوابق الأفكار في ميادين الدروس وفسيح مجالها ، وعمر معاهد العلم بأجل عالم إذا ذكرت وقائع المناظرة كان رأس فرسانها ورَئِيس رجالها»[٣].

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٤٧

[٢] استقر قاضي القضاة المالكية في الثاني عشر من رمضان سنة ٨١٧ هـ عوضا عن القاضي شمس الدين الأموي بحكم عزله ، وكان ذلك في سلطنة الملك المؤيد شيخ ، أنظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٣٣

[٣] المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول القلقشندي في توقيع بالتدريس بقبة الصالح[١]: «الحمد لله الذي جعل للعلم جمالا تتهافت على دركه محاسر الفضائل ، وتتوارد على ثبوت محامده المتواردة قواطع الدلائل »[٢].

وأوضح شيء على أهمية الكتابة ما يقوله القلقشندي لكاتب السر : « وليأمر عنا بما يقابل الامتثال ، ويقال به السيوف لأقلامه مثال ، ويَبْلُغ من ملوك العدا ما لا تَبْلُغُهُ الأسنَّةُ ، ولا تصل إليه المراكب المُشْرَعَة القلوع والخيول المطلقَة الأعنَّة، وليوقِّع عنا بما تذهب الأيام ويبقى ، يُخَلِّدُ من الحسنات ما يُلْفَى آخِرَهُ ويُلْقَى ، وليُمْلِ من لدنه من غُرَرِ الإنشاء ما يطَرِّزُ كلَّ تقليد ، وتُلقى إليه المقاليد ، وليُنَفِّذ من المهمات ما تُحْجَبُ دونه الرماح ، وتُحْجِم عن مجاراة خيل البريد به الرياح »[٣].

٣

الإجازات العلمية

تعد الإجازات العلمية ظاهرة من الظواهر الثقافية في العصر المملوكي الثاني، وبلغت قمتها عند علماء هذا العصر الذين وضعوا لها طرائق وشروطا خاصة بعد أن كانت بسيطة تعتمد في الغالب على الإجازة الشفوية ، ولكنها أخذت في هذا العصر منهجا آخر أكثر علمية وموضوعية ودقة في منحها لطالبيها من تلامذة العلم .

---

[١] قال المقريزي :« هذا المسجد كان بحظ جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء ، عرف بمسجد بني عبيدالله ، وبمسجد القبة ، وبمسجد العزاء ، والذي بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر ، وقد أدركته عامرا إلى ما بعد سنة ثمانمائة ، أنظر المقريزي - خطط المقريزي ، ج ٢ ، ص ٤٤٧

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٣٨

[٣] المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعلى الطالب أن يتدرج في مراحل تعليمية حتى يصبح فقيها ، ويختص بأحد العلوم التي يرغبها ، وبعد جهد ومثابرة ينال إجازته العلمية ، ويشهد الشيخ أو المدرس بأن طالبه أتم دراسته على أكمل وجه، وأصبح مؤهلا للتدريس والفتوى ومنح الإجازة العلمية التي يذكر فيها اسم الطالب وشيخه المجيز ومذهبه وتاريخ منح هذه الإجازة[١].

كتب القلقشندي إجازة لطفل نابغ لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ويقول عنها: «ومن ذلك ما كتبته لمن اسمه محمد ولقبه شمس الدين من أبناء بعض الإخوان ، وقد عرض علي (الأربعين حديثا) للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، و(الورقات) في الأصول للإمام الحرمين ، و(اللمحة البدرية) في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان دفعة واحدة وهو دون عشر سنين »[٢] .

وقال في تلك الإجازة بعد الحمد لله :« ... وأظهر من أفاضل الذراري ما يغض به المخالف طرفا ، ويرفع به المحالف رأسا ، وألحق بالأصل الكريم فَرْعَهُ في النجابة فطاب جنىً وأعْرَقَ أصلا وزكا غرسا ، وأبرز من ذوي الفِطَرِ السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحة ، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفَهْم (الورقات) لديه كالصفحة ، وخَرَقَ بكرم بدايته العادةَ فجاز الأربعين لدون العشر ، وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمت بركة اسمه الشريف سَمِيَّه ففاز منها بأوفر نصيب ، وخُصَّ بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى فما سُمِّيَ به إلا نجيب ، ولا سمي به إلا نجيب ، وعلى آله وصحبه الذين اينعت بهم روضة العلم وأزهرتْ ، وأورقتْ شجرةُ المعارف وأثمرت :

---

[١] باشا - الأدب في بلاد الشام ، ص ١١٩

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١٤ ، ص ٣٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد : فقد عَرَضَ عليّ فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا فمر فيها مرور الصَّبَا ، وجَرَى في ميدانها جرَيْ الجواد ، فما حاد عن سنَنِ الطريق ولا كبَا »[1] .

إن هذه الإجازة التي أنشأها القلقشندي تصور لنا مقدار اهتمام المجتمع في ذلك العصر بالعلم ، وكيف أن صبيا في العاشرة من عمره يحفظ كل هذه المواد والأحاديث ويتقدم لنيل الإجازة ويحوزها لأنه « أبرز من ذوي الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحة ، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم (الورقات) لديه كالصفحة ، وخرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين لدون العشر » ، ويعد تسليم الإجازات العلمية خطوة إيجابية لجذب الناس إلى طلب العلم ، وخصوصا الناشئين منهم .

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الرسالة الإخوانية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة الإخوانية

١

إذا كانت الرسائل الديوانية تتناول ما يخص ديوان الخليفة من أوامر وأحكام، ومن مكاتبات رسمية ، تمس صالح الدولة ، وتسيير أمورها ، وتتكلم بلسان الحاكم المسؤول ، فإن الكتابة الإخوانية تمس عواطف الكتاب ، وعلاقاتهم الخاصة ، واتصالاتهم الشخصية ، وتسمى بالإخوانيات[١] .

وهذه الرسائل تكشف عن اهتمامات الكتاب خاصة ، ورؤاهم وأحلامهم ، وخلجات نفوسهم، واضطرابات مشاعرهم ، وتصور علاقات المودة الصادقة حينا ، والجفاء والعتاب حينا آخر . لكنه على الرغم من ذلك ، لا يمكن الادعاء أن صدق العاطفة ظاهر في كل رسالة منها ، وأن كلا منها صدرت عن منشئها نتيجة انفعال عاطفي ، فتعلق بالوجدان [٢] .

لعل أهم ما يميز هذه الرسائل هو تحرر كاتبها من الشروط الموضوعة للرسائل الديوانية فضلا عن تنوع موضوعاتها ، وقد عبر القلقشندي عن ذلك بقوله: « ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها ، والكاتب إذا كان ماهرا ، أغرب معانيَها ولَطُفَ مبانيَها وتَسَهَّلَ له فيها ما لا يكاد أن يتسهّل في

---

[١] أبو زيد - رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية ، ص ٢٥

[٢] رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٥٨ ، وانظر الفقي - الأدب العربي في العصر المملوكي ، ص ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغيّرُ ولا تتجاوز »[١].

ومن مميزات هذه الرسائل أن كتابتها اشترك فيها معظم الناس بصرف النظر عن مكانتهم في المجتمع أو مستوى معيشتهم ، كما أنها تكتب بألفاظ بديعية وبأسلوب فني رائع لا سيما أنها حرة طليقة من قيود الرسميات التي كثيرا ما تحتاج إلى رصيد كاف من الملق والدهان ، وعادة ما تصور عواطف كتابها ، وعلاقاتهم الخاصة .

وقد تنوعت الرسائل الإخوانية بتنوع موضوعاتها، فمنها رسائل في الشوق، والشكر، والشكوى ، والتقريظ ، والمدح ، والمداعبة ، والتسلية ، والإلغاز ، وإظهار الولاء، والتهنئة ، والتعزية ، والدعاء ، والعتاب ، والاعتذار ، والتبرؤ ، والاستمناح، والاستدعاء ، والمجون ، والغزل ، والنصيحة إلى غير ذلك .

٢

الشكر والتهاني

يعد الشكر والتهاني بابين من أبواب المديح ، والشكر في الأغلب الأعم يكون جوابا عن رسالة من الأصدقاء أو الأقارب أو الأعيان «من تهنئة ، أو تعزية أو غير ذلك ، ولا بد فيها من الثناء على المكاتب ، وشكره على اهتمامه وعنايته ، ومقابلة إحسانه بالدعاء له بما يناسب الحال »[٢]، وإن كانت ابتداء ، فتكون تعبيرا عن امتنان الكاتب لصنيع أسداه المكاتب له ، «كتهنئة بالشفاء من المرض ، دعي

---

[١] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣

[٢] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٥ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للمكاتب له بأن لا يصيبه ، وإن كان أرسل تعزية ، دعي له بأن لا يفجع بعزيز عليه »[١] .

وأما التهنئة ، فقد عدها القلقشندي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة لما فيها « البليغة من الإفصاح بقدر النعمة والإبانة عن موقع الموهبة »[٢] . وقال أيضا : « ويجب على الكاتب أن يراعي فيها مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما مما لا يتسامح بمثله »[٣] ، وتوسع القلقشندي في بيان ضروبها فعدها أحد عشر ضربا وهي : التهنئة بالولايات ، وكرامة السلطان وأجوبتها ، والعود من الحج ، والقدوم من السفر ، والشهور والمواسم والأعياد، وبالزواج والتسري ، والأولاد، والإبلال من المرض والعافية من السقم ، وقرب المزار ، ونزول المنازل المستجدة ، ونوادر التهاني [٤] .

والملاحظ من ذلك تنوع هذه التهاني بشكل لافت للنظر حتى إنها لم تكد تترك أمرا من أمور الحياة الاجتماعية لم تتطرق إليه ، والأغرب من ذلك أن هذه الضروب من التهاني تصنف إلى أصناف أخرى . فقد صنفت التهنئة بالولايات إلى تسعة أصناف وهي : التهنئة بولاية الوزارة ، وكفالة السلطنة ، والإمارة ، وولاية الحجابة ، وولاية القضاء ، وولاية الدعوة على مذهب الشيعة ، والتقدمة على الرجال، وولاية الديوان ، وولاية عمل .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٥ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٥٤

[٢] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٤

[٣] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٤

[٤] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٤ - ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما التهنئة بكرامة السلطان وأجوبتها فهي على ثلاثة أصناف : التهنئة بالإنعام والمزيد ولبس الخلع ، ورضا السلطان بعد غضبه ، والخلاص من الاعتقال .

أما التهنئة بالشهور والمواسم والأعياد فقد جعلها القلقشندي على ثمانية أصناف وهي : التهنئة بأول العام وغرة السنة ، وشهر رمضان ، وما يصلح تهنئة لكل شهر من سائر الشهور ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وعيد الغدير من أعياد الشيعة ، والنيروز ، والمهرجان[1] .

وقد يتفنن الكاتب في التهنئة ، فتأتي أشبه بقطعة أدبية رفيعة المستوى يضمنها الحكم والأمثال فضلا عن أبيات من الشعر ، وكذلك لم تخل رسائل التهاني من نفاق وتزلف أحيانا وبخاصة في تلك الرسائل الموجهة إلى السلطان أو أحد أعيان الدولة من الموظفين في بعض المناسبات وعلى الرغم من تحرر كاتبها من الشروط الموضوعة للرسائل الديوانية ، فإنها متأثرة بمصطلحات الرسائل الديوانية ، ولو إلى حد ما . وذلك ما كتبه القلقشندي إلى المقر الفتحي أبي المعالي فتح الله[2] صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية ، في عام ٨١٤ هـ ، يقول فيه بعد الحمد لله الذي جعل الفتح محط رحال القرائح الجائدة ومستقر نواها، محيط دائرة الأفكار الواردة ، ومركز شعاع كواها ، ومادة عناصر الإفهام الجائلة ، وعتاد شكيمة قواها : « ...على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرّها المصون بأوسع صدر رحيب ، وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من الفرق : قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ، وأقام لنصرتها بأسل الأقلام وصفاح

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠

[2] هو فتح الله العجمي ، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الناصر فرج بن برقوق ، علي بن داود - نزهة النفوس ، ج ٢، ص ٣٠٢ ، وأنظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهارق من إذا طرقها على البعد طارق تلا لسان براعته { نصر من الله وفتح قريب} »[1].

بدأ الكاتب رسالته هذه بالحمد لله سبحانه وتعالى وبالشهادة والصلاة علي النبي عليه الصلاة والسلام ، والإشارة إلى مآثره وبعد أن فرغ من ذلك أخذ يتحدث عن الرياسة في الدول وأنها تستمد من القرب من الملك ، ثم بين منزلة صاحب الديوان في الدولة ، وأسبغ عليه صفات عديدة قائلا فيها بأنه كليم الملك وعميد المملكة والوساطة بين الملك والرعية وما إلى ذلك .

وبعد ذلك يشرع القلقشندي بذكر ما لصاحب الديوان من جاه في الدولة معددا فضائله :« فإن تكلّم أتى من بيانه بالسحر الحلال ، أو حاور أتى من البلاغة بما يُقَصِّرُ عن رتبته (سحبان) في المقال أو تَرَسّل أعيى (عبدالحميد) في رسائله، أو كتَبَ رَتَعْتَ من روض خطه في زهر خمائله :

يُؤَلِّفُ اللؤلؤَ المنثورَ منطقُه وَيَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقلام في الكتُب

أقلامه تزري بالصوارم ، وتهزأ بالأسل ، وتجري بصلة الأرزاق فتزيد على الأماني وتربو على الأمل :

بيتٌ جارَه فالعيش تحت ظلاله واستسقه فالبحر من أنوائه

وبعد أن ذكر فضائله ومآثره ، يعتذر القلقشندي عن تقصيره إزاء المقر الفتحي فيقول : « على أني أستقيل عثرتي من التقصير في أطرائه والتعرض من مدحه لما لا أنهض بأعبائه، فلو أن (الجاحظ) نصيري ، و(ابن المقفع) ظهيري ، و(قس

---

[1] القلقشندي – صبح الأعشى ،ج ١٤ ، ص ٢٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بن ساعدة) يسعفني ، و(سحبان وائل) ينجدني ، و(عمرو بن الأهتم) يرشدني ، لكان اعترافي بالعجز في مدحه أبلغ مما آتيه »[١].

الرسالة السابقة تدل بوضوح على أن رسائل التهاني والشكر متشابهة في أنها مليئة بعبارات المدح والتقريظ ، ويبدو أن القلقشندي أرسل رسالة إلى المقر الفتحي تهنئة له بصحابة الديوان ، وفي الوقت نفسه أقر بتقصيره عن شكره على توليه ذلك المنصب الرفيع إذ يقول في رسالته «وإقراري بالتقصير في شكره أولى مما أصفه من توالي طوله وأياديه :

ولو أن لي في كل منبتِ شعرةٍ لسانا يُطيل الشكر فيه لقصَّرَا »[٢].

٣

التعازي

المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعةُ المجال :« لما تتضَمَّنُه من الإرشاد إلى الصبر ، والتسليم إلى الله جلَّت قدرته ، وتسلية المعَزَّى عما يسلبه بمشاركة السابقين فيه ، ووعده بحسن العِوَضِ في الجزاء عنه ، إلى غير ذلك مما ينتظم في هذا المعنى »[٣] . ويهدف هذا النوع من الرسائل التخفيف من الألم والحزن الذي حل بالمعزى نتيجة لفقده عزيزا لذلك ينصب مضمونها على الدعوة

---

[١] القلقشندي – صبح الأعشى ،ج ١٤ ، ص٢٢٤-٢٢٨

[٢] المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٢٨

[٣] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى التحلي بالصبر والتسليم بأمر الله الذي لا مرد لحكمه . ونَهِلَ الكتّاب في تلك الرسائل من القرآن الكريم والسنة النبوية التي تدعو إلى الصبر ، والإيمان بالقدر المحتوم الذي كتب على جميع العباد .

وقد جعل القلقشندي التعازي في سبعة أضرب وهي : التعزية بالابن ، والتعزية بالبنت ، والتعزية بالأب ، والتعزية بالأم ، والتعزية بالأخ ، والتعزية بالزوجة ، والتعزية المطلقة مما يصلح إيراده في كل صنف[١] .

وقد أحسن الكتّاب فيها كثيرا لكونها تتعلق بمشاعر الناس وأحاسيسهم ، لذلك بحثوا عن أعذب الكلمات التي لها وقع في نفس المعزَّى لكي تخفف عنه مصابه الأليم ، ومن ذلك رسالة للقلقشندي : « مَنْ عَلِمَ أن الأقضية لا تُخطئ سهامُها ، والأقدار لا تُرَدُّ أحكامها ، سَلَّمَ الأمرَ في السّرّاء والضّرّاء ، ورضِي بما مَنَاه في البلاء والابتلاء ، ولا سيما في مصيبة الموت التي سَوَّى بين الخليقة في تَجْرِيْعِ صابِها ، واقتحام عقابها ، وقد اتصل بالمملوك خبرُ الحادث الفاصم لعُرَى الجَلدِ ، البارح[٢] في الجلد ، فاستَحالَتْ في عين المملوك الأحوال ، ومالت عنه الآمال ، ورأى السماءَ قد تكدَّرَ جوها ، والشمس قد تَعَكَّرَ ضوؤُها ، والسحائبَ قد أخلف نَوْؤُها ، والنهار قد أظلم ، والليل قد ادْلَهَمَّ ، والنسيم قد ركد ، والمَعين قد جمد ، والزمان قد سُهِمَتْ وجنته ، وسُلبت حليتُه ، وأفرجت قبضَتُه عن التماسك ، وقَبَضتْ على التهالك ، وعدلتْ عن التجلّد ، إلى التبلّد ، ثم أفاق عن غَمرة فَجيعته ، وهَبِيب سِنَة رَوِيَّتِه ، فسلَّم لله راضيا بأَقْضِيَتِه ، راغبا في مَثوبته »[٣] .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٩٤

[٢] لعله (البادح) والبدح والبذح بإهمال الدال وإعجامها هو الشق (أنظر القلقشندي - حاشية صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٩٧

[٣] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٩٦ - ٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تصف الرسالة مبلغ الحزن والألم الذي أصاب النفس لهذه الفجيعة ، وتصور أعمق تصوير مقدار الجزع والأسى الذي حل بالنفوس ، وتستهدف إلى تخفيف معاناة المعزى ، كما كتب القلقشندي في ذلك : «وقد اتصل بالمملوك خبر الفجيعة بفلان ، فأُفيضتْ المَدامع ، وتَضَعْضَعتْ الأضالع ، وزَفرتْ الأنفاس ، وهَمَدت الحواسّ ، وأذاب الطرف سواده على الوَجَنات بدلا من الأنفاس ، وخَلَعَتْ القلوب سُوَيداءَها على الأجساد ، عِوضا عن جلابيب الحِداد ، وعُضَّتْ الأنامل جزعا ، ومُزِّقت الثياب تفجُّعا وتوجُّعا ، وكل هذا وإن فارق حميدَ التماسك ، ووافق ذميم التهالك ، غيرُ موفٍ بحق ذلك الدارج الذي بلغ المعالي وهو في مهدِه ، وشد دعائم الفضل ولم يبلغ أوان رُشْدِه ، وعَلِمَ سيدي أن غاية الجازع وإن صدَعتِ المصيبةُ قلبَه، وأطاشت الفجيعةُ لبَّه ، والصبرُ والسُّلُوُّ ، وأن نهاية القلق وإن هجمت عليه الحُرْقَةُ بما لا تتوفر عليه الأضالع ، ولا تتماسك معه المدامع ، والقرار والهدُوُّ ، والله تعالى لا يريه بعد هذا الرُزْءِ رُزْءًا بفنائه ، وينقل ذلك عنه إلى حاسديه وأعدائه »[1].

يتضح مما تقدم أن الكاتب رغم مبالغته في وصف شعوره نحو المعزى ، فإنه لا ينسى تقديم النصح إلى المعزى ليخفف الألم والحزن الذي حل به كقوله : « وعلم سيدي أن غاية الجازع وإن صدعت المصيبة قلبه، وأطاشت الفجيعة لبه ، والصبر والسلو ، وأن نهاية القلق وإن هجمت عليه الحرقة بما لا تتوفر عليه الأضالع ، ولا تتماسك معه المدامع ، والقرار والهدوء ، والله تعالى لا يريه بعد هذا الرزء رزءا بفنائه ، وينقل ذلك عنه إلى حاسديه وأعدائه ».

---

[1] القلقشندي – صبح الأعشى ،ج ٩، ص ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤

الشكوى والعتاب

ويميل كاتب هذه الرسالة إلى تزيينها بألفاظ رقيقة يهدف من خلالها إلى التأثير على المرسل إليه ، وإلى بيان حاله وما حل فيه ، وما وقع عليه من أذى ، ورقاع الشكوى «يجب أن تكون مبنية من صفة الحال المُشْكِيَة ، على ما يُوجب المشاركة فيها ويَقْضِي بالمساعدة إن استُدْعِيتْ عليها، من غير إغراق يفضي إلى تظليم الأقدار وإحباط الأجر ، وشكوى المُبتلِى بالخير والشر سبحانه وتعالى ، يدل على التهالك بالجزع ، وضعف التماسك وقوة الهَلَع ، باستيلاء القُنُوط والإياس ، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرضا بأحكامه ، وتوقُّع الفَرَج من عنده ، وتَلقِّي اختباره بالصبر ، كما تتلقى نعمه بالشكر ، ونحو هذا مما يليق به ويجري مجراه »[1] .

وقد تكون هذه الرسائل متبادلة بين الأمراء والسلاطين ، وقد يكتب الأتباع إلى الرؤساء رقاعا بشكاية الأحوال ومساءلة النظر ، ولكن من شروط هذه الرسائل «أن يعدل بها عن التصريح بالشكوى إلى لفظ الشكر ومعناه ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنظراء في الإحسان ، لما في إطلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمه النظر فيه من أحوال خاصتهم وتعهد مرافقهم من الكفاية »[2] .

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ - ١٧٣ - ١٧٤

[2] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ١٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أمثلة الشكوى ، شكوى بهموم المملوك التي كتبها القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) جاء فيها :

« كتب المملوك هذا الكتاب وهو رهينُ فكرٍ وَغَمٍّ وقلقٍ وهمٍ ، وَحَليفُ جَوًى قد سكَن القلب ، وخوف قد أطار اللب ، وبالله العياذ وهو الملاذ ، وبيده تُحَلُّ العُقْدَةُ ، وبأمره تَزُول الشدة ، وقد ألهم الله سبحانه المملوك صبرا يَسَّر أمرَه ، وأملا في الفَرَج خَفَّف ضُرَّه وليس بآئسٍ من عَطْفته ، ولا قانط من نعمته »[١] .

ونلاحظ أن كاتب الشكوى يسهب في شرح حالته وتبيان ما يعانيه ، لكي يجد تعاطفا مع شكواه ، ومن أمثلة ذلك هذه الشكوى التي بين فيها كاتبها قسوة الدهر عليه وفظاظة الأيام معه : « كتب المملوك وهو شاك لتجاهل الأيام ، وقِيْذٌ[٢] من مواقع سهامها الرغيبة الكِلام ، مَنهومٌ بهموم تُضْعِفُ الجليد ، وتَسوءُ الوَدِيْد ، وتَسُرُّ الحسود ، لاقٍ من قسوة الدهر وفَظاظته ، ونَبْوَةِ العيش ونُفْرَتِه ، ما يَرُدُّ الجفونَ عن الهجوع ، ويُغْرق العيونَ بالدموع ، ولله تعالى في عباده أقضيةٌ يَقْضيها ، وأقدارٌ يُمضيها ، واللهَ أسأل حسنَ العافية والختام وتمحيصَ الأوزار والآثام »[٣].

يتضح مما تقدم أن الكاتب يصف ما يعانيه من هموم حتى « تضعف الجليد ، وتسوء الوديد ، وتسر الحسود ، لاق من قسوة الدهر وفظاظته ، ونبوة العيش ونفرته ما يرد الجفون عن الهجوع ، ويغرق العيون بالدموع » ، وهذا الوصف ليس إلا لجذب قلب المرسل إليه ، واطلاعه على الأذى الذي لحق المرسل .

---

[١] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٧٤

[٢] الوقيذ : الشديد المرض ، يقال : وقذه : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت ، وصرعه ، وتركه عليلا ، أنظر القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٧٤

[٣] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥

الاعتذار

ومن المعلوم أن رسائل الاعتذار كغيرها من رسائل التعازي والشكوى والعتاب ، وهي تكون بين الملوك والأمراء ، كما أنها أيضا تكتب إلى الرؤساء والكبراء وبين الأصدقاء ، وهي تحتاج إلى حسن تأن ، فلا بد للمعتذر أن يأتي بألفاظ مؤثرة، ويكون أسلوبه لطيفا نظرا لمكانة المعتذر إليه . و« لا يخلو المعتذَر إليه من أمرين، أحدهما أن يقبل العذر ، والآخر أن يستمر على المَوْجِدَةِ ويَرْفُضَ ما يأتي به من حجة ، فإن كان قد قَبِلَ العذرَ ، وجب أن يُبْنَىْ الجواب على وصول الكتاب ، والوقوف عليه ، والتقبل لما تضمنه ، وتبرئةِ المُعْتَذِرِ عن الحاجة إلى الاعتذار ، والانقياد إلى الاعتراف بالجُرْمِ والإقرار ، إكراما لخُلَّتِهِ عن التهمة ، وللمودة على الظِنَّةِ ، فإن الأمر الذي أوجب العذر لو صدر منه لاقتضى ودادُه التَأَوُّلَ له بأنه ما صدر إلا عن باطن سليم ومصلحة أوجبتْه ، قال : وليس هذا المعنى هو الذي يجاب به مَن قُبِلَ عُذْرُهُ فقط ، لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قَبِلَ العذر، وصَفَحَ عن الجُرْمِ على أن لا يعود إلى مثله ، وإن استمر على القصد بُنِيَ الجواب على إبطال العذر ومعارضته بما يقتضيه والدلالة على خطأ المعتَذِرِ ، وأنه مما لا يَسُوْغُ الصَفْحُ عنه ولا يليق بالحَزْمِ إقالتُه »[1].

ومن رسائل الإعتذار تلك الرسالة الطريفة التي كتبها الأديب فخر الدين ابن مكانس إلى الصاحب زين الدين بن أبي بكر العجمي[2] ، قال في مستهلها

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٧٣

[2] هو أبو بكر بن عثمان بن العجمي ، الحلبي الأصل ، نزيل القاهرة ، نسخ بخطه صحيح البخاري=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

:« ليس على الأعمى حرج ، بلغني - بلغ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر الكاتب الحجة ، زين الدنيا والدين قرّة عين الكرام الكاتبين أقصى ما ينتهي إليه تنافس المتنافس ، وتبتهج به صدور الأولياء والرؤساء والمجالس ، ولا زال زينة يحلى به العاطل ، ويظل تحت جناح أدبه القائل - من غيبة ذلك الضرير ، ما لا خشي الله فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة، ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب ، ولكن لا غناء لسيف ذهن المملوك من التنصل ، ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل وكان المملوك يترقب سببا للمطارحة ، فهذا المغتاب الآن صار عنده محمودا إذا كان السبب لحسن التوسل إلى صناعة الترسل »[١] .

ويقول : « فلو اختلف الأدباء على امام لأهل هذه الصناعة ، مطهر من الأرجاس ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فكيف يسوغ للمملوك أن يدعي غير هذا ، وكيف ولم ولماذا ؟ ، أحسدا على الأدب ، فما أهجرني له منذ عصر الصبا بحمد الله وما أغناني ، أو تفاخرا بالنظم فما أشغلني عنه بتدبير الممالك بما عناني ، نعم وإن كان جوهر الألفاظ مما يحسد عليه ، فما أزهدني - والله - في هذا العرض الفاني »[٢].

والملاحظ على رسائل الاعتذار أن كاتبها يميل إلى إيراد جملة من الألفاظ التي يستطيع أن يستعطف بها من يكتب إليه ، ويحاول جاهدا تقديم أعذاره

=وتولع بالأدب ، وطارح الصفدي ، توفي سنة ٧٩٥هـ ، أنظر العسقلاني - الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٧٩

[١] رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وانظر ابن حجة - خزانة الأدب ، باب الاقتباس ، ص ٤٤٨

[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأسلوب مؤثر لكي يستميل عطف الشخص الذي غضب عليه ، فهذا النوع من الرسائل مليء بتعابير المودة والاعتذار .

٦

الهدايا

الرسائل التي كتبت عن الإهداء والإستهداء أمر عادي في أي عصر من العصور ، وكذلك في العصر المملوكي الثاني فإنها دارت بين السلاطين ونوابهم ، وبين الأصدقاء من الأدباء والعلماء وعامة الناس . وأما رقاع التهادي فإنها « يجب أن تُوْدَعَ من الألفاظ المستحسنة ما يُمَهِّد لقبول الملاطفة والمَبَرَّةِ التي تتميز في المودة ». وأضاف القلقشندي أن ما يكتب مع ما يهدى قد يكتب مع ما يستهدى « إلا أن الغالب مما جرت به عادة الكتّاب في الاستهداء ، طلب الأشياء المستَظْرَفة الخفيفةِ المِنَّةِ دون ما يَعْظُمُ خَطَرُهُ »[١] ، ولهدف الحفاظ على المروءة ينبغي للمهدي « أن لا يَعْتَمِدَ تفخيمَ هديته ، ولا الإشارة إلى جلالة خَطَرَها ، فإن ذلك يُخِلُّ بشروط المروءة ويتحاماه الكُرَمَاء »[٢] .

قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري عن الهدية : « الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كان أبهى لها ، وإن كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كان أوقع لها وأنجع »[٣] ، كما أنها وسيلةٌ فعالة للاستعطاف وللاسترضاء وما إلى ذلك « ما استعطف السلطان ، ولا استرضى

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٠١ - ١٢٤

[٢] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ١٠١

[٣] الدينوري - عيون الأخبار ، ج٣ ، ص ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغضبان ، ولا استلت السخائم ، ولا استدفعت المغارم بمثل هذه الهدايا »[١] .

وأنواع الهدايا كثيرة ، منها الكتب وما يتعلق بها ، وفي ذلك كتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة[٢] رسالة إلى من يستهدي منه كتبه ، ويستأذن منه أن يكتب روايته ، يقول فيها : « كذلك عرض علي المذكور باطنها عرضا حسنا ، محررا مهذبا مجادا متقنا ، عرض من أتقن حفظه ، وزين بحسن الأداء لفظه ، وأجزل له من عين العناية حظه ، مر فيه مرور الهملاج الوساع ، في فسيح ذي السباع . وقد دلني ذلك منه – نفعه الله تعالى ونفع به ، ووصل أسباب الخير بسببه ، على علو همته ، ووفور أريحيته ، وتوقد فكرته ، واتقاد فطنته ، وأصله في ذلك كله عريق »[٣] .

إن كاتب الرسالة السابقة ، إلى جانب قبوله طلب المستهدي ، فإنه يمدح المستهدي بعبارات « محررا مهذبا ، مجادا متقنا » ، ويرى أنه وصل أسباب الخير سببه انتشار مؤلفاته .

٧

الشفاعات

وتصدر مثل هذه الرسائل عن ذوي الرتب والأخطار ، والمنازل والأقدار الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ، ودرك الرغائب . ويحتاج كاتبها إلى

---

[١] الزمخشري – ربيع الأبرار ، ج ٥ ، ص ٣١٥ – ٣١٦

[٢] محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز بن محمد ، الكناني ، الحموي ثم المصري ، توفي سنة ٨١٩هـ أنظر السخاوي – الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ١٧١ – ١٧٤

[٣] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التلطف فيها ، وابداعها من الخطاب ما يخرج به الشافع عن صورة المثقل على المشفوع إليه بما كلفه إياه ، ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له ونجاح مطلبه .

والمتلمس فيها ممن تنفذ إليه أحد ثلاثة أنواع ، «إما بَذْلَ مالِه ولا يبذل ماله إلا ذو مروءة يَفْرِضُ على نفسه حقا فيه لقاصديه ، وإما بذل جاهه ، وفي بذل الجاه إراقة ماء الوجه ، والتعرض لموقف الرد ، وإما الاستنزال عن سخيمة ومَوْجِدَةٍ في النزول عنهما ، كَفُّ حد الغضب ، وغَضُّ طرف الحنق ، وهما صعبان إلا على من فَضَلَ حلمه ، ولطف فهمه» ، وفي سبيل ما كان في استباحة المال «أن يُبْنَىْ على الإبانة عن موقع الإفضال وفضيلة النَّوَال ، واغتنام فرص الاقتدار في معونة الأحرار ، وما جارى هذا - وسبيلُ ما كان منهما في طلب الانتفاع بالجاه أن يُبْنَى على هزِّ الأريحية لاصطناع الصنائع ، وتَحَمُّلُ المشاق في تقليد المنَنِ ، وادّخار الفعل الحسن ، واغتنام الأجر والشكر ، وسبيل ما كان منهما في الاستنزال عن السخائم أن يُبْنَى على الملاطفة ، والإشارة إلى فضيلة الحِلْمِ والصفح عن الخاطئ ، وما في ذلك من حسن السمعة في العاجلة ، ومتوفر المثوبة في الآجلة ونحو ذلك »[١] .

ويتضح لنا مما تقدم أن هذه الشفاعات تكون لأمور ثلاثة : لنيل المال ، أو الجاه ، أو إزالة السخائم . وتبني الرسالة الأولى على إيضاح إفضال المشفوع له وكرمه ، أما الثانية فتبنى على هز مشاعر المشفوع له ، وأما الثالثة فتبنى على الملاطفة والإشارة إلى ما يتمتع به المشفوع له من حلم ومقدرة على الصفح .

ومن تلك الشفاعات ، رسالة أرسلها الثائر الشيخ إلى تغري بردي أتابك السلطان الناصر فرج بن برقوق[٢] :

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ١٢٧

[٢] ثار الأمير شيخ ضد الملك الناصر فرج ، وتحارب معه فكسره الناصر ، فالتجأ إلى قلعة صرخد=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«صن دماء المسلمين ، واجعلنا عتقاءك ، وما لك فينا جميلة ، فإننا إنياتك وخشداشيتك ، ولم يكن في القوم من له علي أنا خاصة شفقة وإحسان غيرك ، وأنت أتابك العسكر وحمو السلطان وأعظم مماليك أبيه ، فأنت عنده في مقام برقوق ، وكلمتك لا ترد عنده ، وشفاعتك مقبولة »[1].

من الواضح أن كاتب الرسالة السابقة يتلمس الشفاعات من ترغي بردي أتابك السلطان الناصر فرج بن برقوق لخلاصه من الحصار لصون دماء المسلمين، وقد تغلبت عليها لغة الملاطفة لهز مشاعر المرسل إليه لاستنزاله عن سخيمته، ومدح الثائر الشيخ ترغي بردي بقوله «فأنت عنده (السلطان الناصر فرج) في مقام برقوق، وكلمتك لا ترد عنده، وشفاعتك مقبولة».

=فحاصره فيها حتى أشرف على الهلاك ، فأرسل شيخ إلى ترغي بردي أتابك السلطان يتلمس الشفاعة. انظر ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ، ص ٨٥ ، ومحمد ماهر - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ، ص ٢٩٥

[1] ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ، ص ٨٥ ، وانظر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ، ص ٢٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسالة الأدبية

الرسالة الأدبية أقرب ما تكون إلى التعبير الذاتي الانطباعي عن مشاعر الكتاب ومواقفهم من الحياة ومباهجها ومآسيها ، والناس وطباعهم ، والطبيعة وفتنتها وقسوتها ، والبلاد ومناخاتها وبيئاتها ، وهذه الرسائل قد يكاتب بها ، وقد لا يكاتب[١].

وأنها لا تختلف كثيرا عن الرسائل الديوانية من حيث الصناعة اللفظية ، فأكثرها يسود فيه السجع والبديع ، وإنما الاختلاف بينهما ظاهر في أغراضها ، وكثيرا ما يكون كتابها من أرباب الدواوين ، على أن ذلك ليس بقاعدة مطردة [٢] .

وقد تنوعت موضوعات هذه الرسائل ، ومنها الطرديات ، ووصف النكبات ، والمجون ، والمفاخرات والمناظرات ، والنقد والتهكم وغيرها .وهذه الرسائل كتبها الأدباء عادة لأغراض عدة ، منها لتطوير ملكتهم الإبداعية ، أو للتغلب على خصومهم في مجال الأدب بإظهار ما فيهم من مهارة الإبداع ودقة الملاحظة ، أو للرد على انتقادات الأدباء الآخرين .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١٤ ، ص ١٥٧

[٢] المقدسي - تطور الأساليب النثرية ، ص ٣٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١

الطرديات

دأب الملوك والأمراء وغيرهم على الخروج إلى الصيد مستصحبين معهم الحرس ، والحاشية ، ومجموعة من أدوات الصيد من سهام ، وأقواس ، ونشاب ، وبندق[١] ، وبزاة ، وصقور ، وخيل ، وكانت هذه من الهوايات المحببة إلى النفوس ، وهي تدل على الفروسية ، والشجاعة ، والمقدرة على تحمل الصعاب .

وقد صور الأدباء رحلات الصيد هذه تصويرا مسهبا ، وأكثروا من وصف آلات الصيد ، وأطنبوا في نعت الجوارح ورددوا الكثير من صفات الخيل على مختلف ألوانها، وأطالوا في وصف الصيد من طير جارح أو حيوان سارح .

وقد تحتوي رسائل الصيد على وصف الرحلة - رحلة الصيد - منذ بدء الاستعداد إلى وقت انتهاء الرحلة والعودة منها ، إذ تذكر الرسالة ركوب السلطان ومسيره ومن حف به ، وما احتوى عليه ، ومراحل رحيله ، وأماكن نزوله ، وما حف بذلك كله من مواضع ومناظر رائعة وحفاوة بالغة ، وما تخلل ذلك من حوادث وقعت في أثناء الرحلة، والمواقف التي أبدى خلالها السلطان شجاعة وكرما ، ولهذا قد تتحول الرسالة من وصف الصيد وأدواته إلى مدح السلطان وإغداق الثناء عليه .

وقد يبدع منشئ هذا النوع من الرسائل كثيرا في وصف تفصيلات الرحلة، وما وقع فيها من أمور ، فضلا عن تصوير الطبيعة والأماكن التي كانت مسرحا

---

[١] كرات من الرصاص استعملت في مصر أيام المماليك للصيد ، وترمى عن قوس في وسط وترها قطعة معدنية دائرية تسمى الجوزة ، وتوضع فيها البندقة عند الرمي ، محمد قنديل - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ص ٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للصيد ومطاردة الحيوان .

وتنافس عدد من الكتاب في العصر المملوكي الثاني في وصف الصيد ، ولم يقتصر وصفهم لها على ذكرها في سياق رسائل الصيد ، بل كتبوا إلى جانب ذلك الرسائل والكتب المستقلة عن الحرب (الفروسية) ، والألعاب (بركوب الخيل) ونحوها، ومنهم : طيبغا الأشرفي البكلميشي اليوناني ، (ت ٧٩٧ هـ)[١] ، وعبداللطيف بن الملك الكرماني ، (ت.٨٥هـ)[٢] ، وأبو بكر الحلبي المنقار ، (ت.٩٢٠هـ)[٣] ، وابن عبدالجبار الفجيجي ، (ت ٩٢٠ هـ)[٤] .

وقد افتتح ابن حجة الحموي رسالته الطردية (مجرى السوابق) بخطبة تدل على مقدرته وبراعته في الكتابة قال فيها :

« الحمد لله الذي يقف عند سوابق فضله كل جواد ، ويقصر في حلبة هذا الكرم الذي ليس له غاية في بديع الاستطراد ، فمن ألهم الحزم وأرشده إلى حد المعرفة حاز قصبات السبق »[٥] .

---

[١] ألف كتاب : الجهاد والفروسية ، وفنون الآداب الحربية، وهو مطول في علم ركوب الخيل ، ولا سيما في الحرب ، وكتاب بغية المرام وغلية الغرام ، وهي قصيدة في رمي السهام ،و كتاب غنية الطلاب في معرفة الرمح والنشاب ،أنظر جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٣ ، ص٢٧٦ - ٢٧٧

[٢] له: منية الصيادين في أيا صوفيا ،أنظر جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٢٧٨

[٣] له: أرجوزة في رمي السهام عن القسي ، اسمها (الأرجوزة الحلبية) في ٤٠٠ بيت ، أنظر جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩

[٤] له: الفريد في تقييد الشريد وترصيد الوليد ، قصيدة في ٢١٣ بيتا في الصيد مع شرحها، أنظر جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٢٧٩

[٥] ابن حجة - تأهيل الغريب فيه (مجرى السوابق) ، ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية ، رقم التسلسل ، ٦٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«نحمده على أن جعل لنا الخير معقودا بنواصي الخيل ، ونشكره شكرا نعلو به على أشهب الصبح ونمتطي أدهم الليل ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجو أن نكون بها في ميادين الرحمة الواسعة من السابقين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قائد الغر المحجلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم السابقون السباقون إلى الغايات ، وإذا ذكرت الفصاحة والشجاعة كانوا على كلا الحالين فرسان العربيات ، وسلم تسليما »[1] .

والملاحظ أن ابن حجة الحموي قد استعان بمصطلحات الخيل في هذه الرسالة بطريقة بارعة وأسلوب طريف ، ومن ذلك إيراد المصطلحات التالية (سوابق) ، (جواد) ، (حلبة) ، (قصبات السبق) ، (نواصي الخيل) ، (أشهب) ، (أدهم) ، (ميادين) ، (السابقين) ، (الغر المحجلين) ، (السباقون) ، (فرسان) .

وقال أيضا في هذه الرسالة عن الفرس الأشهب :« من أشهب شابت بياضه مفارق الأرض ، وقصر طولها بسرعته يوم العرض، إن تعلل جواد بغرته فهذا كله غرر ، وكم قالت الشهب الثواقب إن كان هذا في السبق مبتدأ ، نزلنا وراءه منزلة الخبر .

والنصرُ في أشهب يبدو بطلعته يوم الخميسَين لا في السبعة الشُهب

وقد قدمنا أن القمر شاركه في اللون وفرط البهجة في الأفق ، فكم جاراه في السير فقطعه وتركه مرميا على الطرق ، جواد له اليد البيضاء مع كرم الأصل ، وما غمزه فارس إلا قطع بوصوله إلى العرض ، فهمزته همزة قطع وهمزة وصل ، يسبق النظر في تصوره إذا امتد خلفه وطلبه ، فكأنه بقايا يقين كاد الشك أن

---

[1] ابن حجة - تأهيل الغريب ، ورقة : ٢٦ - ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يذهبه، ما قرع بيده بنية إلا سقطت ساجدة لصعوده بهاتيك المزايا ، وقال بياضه الصبحي منشدا : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا »[١].

وتكشف لنا هذه الرسالة مقدرة الحموي على الاستعانة بمصطلحات النحو في وصفه لهذا الفرس الأشهب (إن كان هذا في السبق مبتدأ) ، (نزلنا وراءه منزلة الخبر) ، (همزة قطع) ، (همزة وصل) ، كما أنه تمثل بقول من خطبة للحجاج بن يوسف الثقفي وهو قوله : « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ».

٢.

الرسائل الوصفية

وصف النكبات :

تعرضت البلاد لكثير من الحوادث والنكبات في أثناء الحكم المملوكي الثاني، منها تفشي الطاعون الذي أودى بحياة الكثير من الناس[٢] ، ولذلك تحدثت الرسائل بإسهاب عنه وما أنزله من الأضرار بالناس ووقوفهم عاجزين عن رده ، وكذلك وقوف الأطباء عاجزين عن إيجاد العلاج اللازم له حتى تعددت الوفيات وكثرت الجنائز اليومية ، وشاع الخوف والرعب بين الناس ، إضافة إلى ما كان يعانيه المجتمع من استشراء الغلاء الفاحش وارتفاع الأسعار ونقص المواد ، وقد وصف الكتاب في رسائلهم جانبا من ذلك وصوروا مشاعر الناس إزاء ذلك .

---

[١] ابن حجة - تأهيل الغريب ، ورقة : ٢٦ - ٢٨

[٢] ابن قاضي شهبه - تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج ٣ ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى جانب هذه النكبات فإن إزدياد فيضان النيل أيضا يشكل مصدر تهديد للناس وللزرع ، وكتب الكتاب في ذلك العصر رسائل تتعلق بتلك الظاهرة المخيفة ، وتكون آثارها وأضرارها وخيمة على البلاد والعباد ، من تلك الرسائل ، رسالة كتبها الأديب فخر الدين بن مكانس[١] سنة ٧٨٤هـ ، إلى صديقه الأديب بدر الدين البشتكي[٢] وصف فيها بإسهاب فيضان النيل في تلك السنة والتي بدأها بقوله :

« ربنا اجعلنا في هذا الطُوفان من الآمنين ، وسلام على نوح في العالمين » ، ثم شرع يشرح لصديقه الأديب بدر الدين تلك الزيادة في مياه النيل : « ما تأخير مولانا بحرِ العلم وشيخِه ، عن رؤية هذا الما؟ ، وما قُعادُه عن زُرْقَةِ هذا النيل الذي جُعِلَ الناسُ فيه بالتوبة كالملائكة لمّا غدا هو أيضا كالسّما ، وكيف لم يَرَ هذا الطُوفان الذي استَحَال بالزيادة ، فما أشبه زيادَتَه بالظما ، فهي كزيادة الأصابع الدالة في الكَفِّ على نقصه ، وأولى أن نُنْشِدَ بيتَ المَثَل بنصه :

طفح السرور عليَّ حتى إنه من عُظْم ما قد سَرّني أبكاني !

فإنه قارب أن يَمْتَزِج بنهر المَجَرَّة ، بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حَقَّقَ أنه المَعنِي بقول القائل (حَدِّثْ عن البحر ولا حرج) »[٣].

وقد أطنب الكاتب في وصف ما أحدثه النيل بفيضانه هذا من أضرار

---

[١] هو الوزير فخر الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن عبدالرزاق ، وزير دمشق وناظر الدولة بمصر ، (ت ٧٩٤ هـ) ، أنظر جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ١٣٥

[٢] البشتكي كان أحد مشايخ الصوفية ، نسبة إلى خانقاه بشتك ، وكان أحد صوفيتها فعرف بالنسبة إليها ، توفي سنة ٨٣٠هـ ، انظر الصيرفي - نزهة النفوس ، ج ١ ، ٢٠١ - ٣٤٤ - ٣٥٣ ، وأنظر السخاوي - الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٧٧

[٣] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جسيمة، وكيف أنه أذاق الناس الموت الأحمر ، وطفحت مياهه في الأسواق والحارات ، فاستعان الناس في سيرهم على الألواح الخشبية .

ومن خلال هذه الرسالة يتبين لنا أن الأضرار التي أحدثها النيل في تلك السنة كانت كبيرة جدا ، وكانت زيادته نكبة حلت بالناس ، لذلك واصل الكاتب فخر الدين بن مكانس وصف ذلك بقوله :

«فلو رآه مولانا وقد هَجَم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور ، لم يُرَ منه غيرُ الآثار لبَكَى بعينَيّ (عُرْوَة) ، وأوَى من الرَصَد وقد تفجَّرتْ من صَلْدِه عيون النَزّ إلى رَبْوَةٍ ، وأوردَنا لروض (الجزيرة) وقد خَلَع حِلاه ، وتَخَلْخَلتْ عرائسُ أشجاره على الحالين بالمياه ، والنخيل وقد قُتلتْ مُلاكُها - حين فَتَك - بالأسف ، وجَفَّ أحمرُ ثمرِها وأصفرُه فأرانا العُنَّاب والحَشَف . و(الجِيزَة) وقد قلتُ لها تبا لجارك النيلِ إذ أفسدك صورةً ومعنًى ، وسكن مَغانِيَكِ فَسَقَى ديارك بغير استثناء ، وقُراها الغربيّة وقد قلتُ لها حين أوتْ إلى أعالي الأرض هربا من المياه ، واعتَصمتْ بالجبل الغربي :{لا عاصمَ اليومَ من أمر الله} ، وكلُّ سفينة وقد علتْ على وجه الماء وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء، وقد قالت لها أترابُها عند الفراق : ألا ترجعي ، وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل {يا سماء أقْلِعي} والنيل تبدو عليه القُلوع خافيةً فكأنها الخِيام بذي طلوح[1]، وجارَ على الناس بطغيانه فكأنما هو أخو فرعونِ مصرَ ، أو ابنُ طوفان نوح »[2].

---

[1] ذي طلوح : موضع بين الكوفة وفيد ، وقد ورد في شعر جرير :

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام .أنظر ياقوت الحموي - معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٩

[2] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم راح الكاتب يصف ما حل بالبساتين والأزهار من حزن معتمدا على التشبيهات والاستعارات والكنايات فقال :

« ونرجس البساتين وقد ابيضَّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم ، وفارَق أحبابَه من الرَيَاحين ، ولم يَبْقَ له غيرَ القلانس صديقٌ ، وغيرَ الماء حميم ، والوردِ وقد قيل له (ما لك من آس) ، وغصنِ البان وقد قيل له (طُوبَى لمن عانقك ولا بأس) والأسماكِ وقد ألجمهم العَرَق ... »[1] .

٣

رسائل المجون

قامت الرسائل الأدبية في العصر المملوكي الثاني بدور كبير في عرض جانب من جوانب الحياة الاجتماعية في ذلك العصر وهو اللهو والفساد ، وكانت مجالس الخمرة واللهو شائعة في هذا العصر إذ كانت تعقد هذه المجالس باستمرار ويحضرها أناس من أهل الأدب والشعر ، وقد يحاول شاعر أو كاتب أن يغري صديقا عزيزا عليه بحضور هذه المجالس ، فيكتب له رسالة يزين له فيها طيب هذه المجالس، ويدعوه بإلحاح إلى حضورها للتمتع ولإكمال شمل أهل اللهو .

وقد كتب بدر الدين بن الصاحب رسالة إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه فيها إلى مجلس لهو ، قال فيها :

« هل لك ، بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك ، في عذراء مصونة

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالدرة المكنونة ، كأن على خدها فوق وردة ياسمينة ، مظلومة الريق في تشبيهه بالضرب، وحاشا ثغرها الدري أن يفوته شنب ، لها من ذاتها طرب يغني عن المزامير ، بلقيسية الجمال لها صرح ممرد من قوارير ، ليلها من حسنها نهار وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، عجوزة الاسم صبية الاستمتاع ، بكر تستخف الحليم بكشف القناع ، أديمها كلما يعتق يغلو وورودها كلما مر يحلو ، ثملة المعاطف تقهقه قهقهة الرعونة ، كأنها خلقت نشوانة من الطينة ، حديثها السحر الحلال وعتيقها خلع الدلال ، تطيب عيش الجلاس ، وتعرك أذن الوسواس ، من القاصرات الطرف في كل قصر ، وهي على الإطلاق منحة العصر ، رومية لها بالكيمياء معرفة ، مع أنها بإدراك المطالب متصفة فتارة تقلب الأحزان أفراحا ، ومرة تكتال لك الذهب أقداحا، نديمها يجد في نفسه مخايل المملكة ، ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤ حباتها شبكة، لو خالطها جبل لماس ، أو قابلها جماد لقيل إنه كاس ، أو قتلت ندمانها ما نسبت إلى باس ، ولقال لسان حالهم : وفيها منافع للناس ، أنفاسها مسكية، ومكارمها حاتمية ، وأنسابها قيصرية ، بكر بخاتم ربها ، وهي ترضع أباها من حليبها، فتعيد الشيخ صبيا ، والمشغول خليا ، فكأنها استعارت الأرضاع من أمها التي لها ثدي كالنجوم عدة ، وتعلمت منها المكارم لما رأت أكفها بالندى ممتدة ، غانية طعم الحياة في ريقها ، وضيق الوقت في مباينتها وتطليقها ، لا تنزل الحوادث ساحتها ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان »[1].

ويمكننا أن نلاحظ كيف امتلأت هذه الرسالة بعبارات الإغراء في حضور هذا المجلس ، وكيف بالغ كاتبها بدر الدين بن الصاحب في وصف الخمرة فهي عنده

---

(١) ابن حجة – تأهيل الغريب ، ورقة : ٧٥ ، وأنظر رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص١٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقلب أحزان المهموم إلى فرح ، وأن فيها منافع للناس ، وهي التي تبعد الهم عن المشغول ، فيصبح باله خاليا من كل كدر ، وهي التي تعيد الشيخ الطاعن في السن صبيا ، « لا تنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها » ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تغري المدعو لحضور مجلسها .

وكذلك كتب تقي الدين بن حجة الحموي رسالة في هذا الموضوع إغراء بحضور مجلس خمر ، لتمرين قريحته ، وإبراز موهبته فقال :

« يا مولانا ، المماليك بروض جرت دموع الطل من أحداق حدائقه لفقدك ، وضاقت أنفاس نسيمه وظهر الكسر في قلب مائه لبعدك وعاد تصفيق الموج لطما على وجنات الأنهار ، وخرج كل مغرد عن المغني فلم يغن بعدك عن عود وطار ، وكأن ثغر الكأس قد ابتسم عن شنب فصار الشنب دموعا على وجنة حمراء ، ولذهاب حواس الإنس لم يقل نديم إلا فاسقني خمرا وصلب الراووق على وجهه ، وعادت قهقهات القناني زمجرة ، وقلبنا المثل فقلنا اليوم أمر وغدا خمر ، لما أثبت قاضي العتب لغيبتكم محضره ، ودار القدح على كعبه ولم يجدك في الصحبة ، ففك عقود حبابه من طوقه ، وقال : انفرطت السبحة »[1].

ويقول بعد ذلك واصفا الخمر ومكان اللهو :« فيا فريد العصر لا تترك فريدة عصرها ، ويا أفق الانس لا تفرق بين شمسها وبدرها ، ويا جابر القوم كيمياء الشراب مفتقرة إلى حسن تدبيرك ، وكسرى وقيصر محدقان من وراء زجاجة إلى حضورك ، فلا تدع ثغور الاقاح تعض على أصابع المنثور أسفا ، فقد جرى من دموع الغمام على وجنات الورد ما كفى ، وعافت الشمس ورشف قمر الندى بكؤوس

---

(١) رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٥ – ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشقيق ، ولم يجمع الورد فمه لتقبيل إذ صار عنده لغيبتك تحقيق، وانكسرت شوكته وخشي من نفيه إلى الكرك وورد حمامه ، واعتراه من برد النسيم رعدة فلم يخرج يده عن أكمامه ... »[1] .

إن قيام الأديب تقي الدين بن حجة الحموي بكتابة مثل هذه الرسالة ، دليل علي شيوع هذا النمط من الرسائل في ذلك العصر ، والملاحظ أيضا أن كثيرا من الألفاظ والتعابير تكرر في عدة رسائل ، ففي هذه الرسالة مثلا نجد لفظة (كيمياء الشراب) وقد وردت في رسالة بدر الدين بن الصاحب فقال (رومية لها بالكيمياء معرفة) ، وكذلك ورد اسم (قيصر) في الرسالتين فضلا عن اشتراكهما في كثير من التشبيهات .

والشيء الملاحظ في هذا النوع من الرسائل احتشادها بذكر الورد وأنواعه، فضلا عن ذكر صفات الخمرة ، فهناك (الياسمين) و (ثغور الاقاح) و(جنات الورد) و(عيون الأزهار) وغيرها ، وهناك أيضا وصف لمكان اللهو حيث الخضرة والماء والنسيم العليل.

٤

المفاخرات والمناظرات

المفاخرة هي « التفاخر والإشادة بالنفس ، أو بالقوم ، أو بالحسب ، وهذا الفن قديم إن كان شعرا أو نثرا ، وقد تكون المفاخرة بحقيقة الحسب ، وقد تقوم الفصاحة

---

[1] ابن حجة – تأهيل الغريب ، ورقة : ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واللسن مقام الحسب »[١] ، وأما المناظرة « فهي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب ، وقد يكون مع نفسه »[٢] .

والرسائل المتعلقة بالمفاخرات والمناظرات قائمة على تخيل الكاتب، ويكون الحديث فيها في أكثر الأحيان حوارا ومناظرة على لسان الأداتين أو الشيئين ، ويبين كل منهما محاسنه وخصوصياته بعبارات جميلة ، هدفه الفخر والبروز والتغلب على خصمه .

ومن الرسائل التي تدخل في هذا الباب الرسالة التي كتبها القلقشندي سنة ٧٩٨ هـ لقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين البُلْقِيْنِي[٣] وموضوعها المفاخرة بين العلوم المختلفة وهي رسالة طويلة أورد فيها المؤلف نيفا وسبعين علما ابتدأها بفن اللغة ، وقد ذكر فيها فخر كل علم على الذي قبله .

وقد استهلها بالحمد والتشهد مع بيان قيمة العلم فقال :

« الحمد لله الذي جعل للعلم جلالا تَوَدُّ جلائل الفضائل أن تكون له أتباعا ، وأطلق ألسنةَ الأقلام من جميل ثنائه بما أنطق به ألسنة العالَم ليكون الحُكم بما ثَبَتَ من مآثور فضله إجماعا ، وأجرى من قاموس فِكْره جداول أنهار العلوم الزكية

---

[١] أحمد مطلوب – معجم النقد العربي القديم ، ج ٢، ص ٣٣٠

[٢] المرجع نفسه ، ص ٣٥٥

[٣] نسبة إلى (بلقينية) وهي قرية من قرى حوف مصر . وقد استقر القاضي جلال الدين ابن شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني في قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن القاضي ناصر الدين بن الصالحي بحكم عزله وتوفي سنة ٨٢٤هـ ، أنظر الصيرفي – نزهة النفوس والأبدان ، ج ٢، ص ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنَعَّشَ قلوبا ، ونَزّه أبصارا ، وشنَّفَ أسماعا »[١] .

وبعد أن انتهى القلقشندي من تقديم الحمد والشكر ، انتقل للحديث عن العلوم فقال : « وبعد ، فلما كانت العلوم مشتركةً في أصل التفضيل ، متفقة الفضل في الجملة وإن تفاوتت في التفصيل ، مُسلَّمًا أصل الشرف فيها من غير منازع ، مُجْمَعًا على أنه لا شيء من العلم من حيث هو علمٌ بِضَارّ ، ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع ، مع اختلافها في التفاضل باختلاف موضوعاتها »[٢].

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر اجتماع هذه العلوم في المفاخرة فقال: « هذا : وإنها اجتمعتْ يوما اجتماع معنًى لا صورة ، وقامت لها سوقٌ بالبحث معروفةٌ وعلى الجدال مقصورة ، وتفاوضت بلسان الحال وتخاطبتْ، وتحاورت في دعوى الشرف ، وتجاوبت ، وألَمَّتْ بالمنافرة فتنافرت ، وتسابقت في ميدان الافتخار فتفاخرتْ ، أخذ كل منها في نُصرة مذهبه ، وتحقيق مطلبه ، بأنواع الحجج والاستدلالات ، وإقامة البراهين والأمارات ، وما يَتَوَجَّه إلى ذلك من الأسئلة والاعتراضات[٣] .

وفي مستهل حديثه عن علم اللغة قال : « قد علمتم معشر العلوم اني أعَمُّكم نفعا وأوسعكم مجالا ، وأكثركم جَمْعًا ، على قُطْبِ فلكي تدور الدوائر ، وبواسطتي تُدرَك المقاصد ويستعلم ما في الضمائر »[٤] .

وانتقل بعد ذلك ليصور لنا الصراع بين علوم اللغة العربية ، فذكر علم

---

[١] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٣٧

[٢] المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣٨

[٣] المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩

[٤] المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التصريف ، وعلم الخط ، وعلم النحو ، وعلوم المعاني والبيان والبديع ، وعلم الشعر، وعلم القافية ، وعلم الموسيقى ، وعلم الآلات الروحانية ، وعلم الطب ، وعلم خواص العقاقير ، وعلم البيطرة ، وعلم قص الأثر ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم أحكام النجوم، وعلم السحر ، وعلم الطلسمات الغريبة ، وعلم الهيئة ، وعلم الهندسة ... الخ من العلوم .

وبعد أن عرض لجميع هذه العلوم ، انتقل ليصف لنا التئام شمل هذه العلوم من جديد بعد هذه المفاخرة ، وصورها وقد أقبلت على الشعر معاتبة ليسهم مع النثر قائلة له مجتمعة :

« قد أتى النثر مِنْ مَدْحِهِ بقدر طاقته ، وإن لم يوف بجليل قدره ورفيع مكانته ، فلا بد من أن تختم هذه الرسالة بأبيات بالمقام لائقة ، ولما نحن فيه من القضية الواقعة مطابقة » ، فأجاب الشعر نداء العلوم قائلا : « سمعا وطاعة واستكانة وضراعة ، ثم لم يلبث أن قام عجلا ، وأنشد مرتجلا »[1] .

من خلال هذه المفاخرة نجد أن لكل علم مميزاته الخاصة التي يتفوق بها على غيره من العلوم ، وأن تفاوتها في الشرف بحسب الحاجة إليها ، أو وثاقة حجمها أو نفاسة غاياتها. وفي هذا اللون من الكتابة ، يبدو أن الكاتب هو الحاكم الفعلي للحكم على أفضلية علم معين على آخر.

ومن أكثر المناظرات شيوعا في هذا العصر ، المناظرة التي كتبها السيوطي وأسماها (فائدة في بطلان شبهة دعوى إبليس خيريته على آدم) ، وهي مناظرة بين النار والتراب ، وقد ذهب فيها السيوطي إلى تفضيل التراب على النار باذلا جل

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١٤ ، ص ٢٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جهده في إظهار مفاسد ومضار النار ، متحيزا إلى التراب وما فيه محاسن وطبائع، ومما جاء فيها قوله : «إن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال... ، لكفاها ذلك شرفا وفخرا على النار » ، و يقول «إن الله تعالى أودع الأرض من المعادن ، والأنهار ، والعيون ، والثمرات ، والحيوانات ، والأقوات ، والجبال ، والرياض... ، فأي روضة وجدت في النار »[١] .

نلاحظ مما سبق ، أن السيوطي فضّل التراب على النار ، لأن عليها أقيمت بيوت الله ، وفضلا عن ذلك فإن الله تعالى أودع الأرض من المعادن ، والأنهار ، والعيون ، والثمرات ، وكل أسباب الخير والسعادة ، فالنار إذن «محلها محل الخادم لهذه الأشياء »[٢] .

٥

النقد والتهكم

إن هذا النوع من الرسائل تعطينا صورة واضحة عن علاقات الأدباء بعضهم ببعض في بعض مجالات الحياة ، وخصوصا في مجال العلم والمعرفة . ومن أهم تلك الأحداث التي وقعت في هذا العصر ، معارك السيوطي[٣] ضد خصمه السخاوي[٤]

---

[١] رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ٢٦٧

[٢] المرجع نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٦٧

[٣] عبدالرحمن بن أبو بكر السيوطي المعروف بجلال الدين ، ولد في ٨٤٩ هـ في مدينة القاهرة، ومات في عام ٩١١ هـ ، وهو من أشهر العلماء في ذلك العصر، انظر السيوطي - حسن المحاضرة ، ص ٢٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للدفاع عن نفسه لما اتهمه بسرقة بعض مؤلفاته ، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للمعاصرين بها ، وغيرهما من التهم الكاذبة . فكان من ردود فعل السيوطي أن كتب رسالته المسماة « مسالك الحنفا » مجرحا علم السخاوي ، مجردا إياه من مؤهلات الإفتاء ، ساخرا منه على النحو الذي اعتمده لنفسه في الرد على خصومه قائلا : « إني بحمد الله قد اجتمع عندي الحديث ، والفقه ، والأصول ، وسائر الآلات من العربية ، والمعاني ، والبيان ، وغير ذلك ، وأنا أعرف كيف أتكلم ، وكيف أقول ، وكيف أستدل ، وكيف أرجح ، وأما أنت يا أخي - وفقني الله وإياك - فلا يصح لك ذلك ، لأنك لا تدري الفقه ، ولا الأصول ، ولا شيئا من الآلات . والكلام في الحديث والاستدلال ليس بالهين ، ولا يحل الإقدام على التكلم فيه لمن لم يجمع هذه العلوم ، فاقتصر على ما آتاك الله ، وهو أنك إذا سئلت عن حديث تقول : « ورد ، أو لم يرد ، وصححه الحفاظ أو حسنوه ، أو ضعفوه ، ولا يحل لك الإفتاء سوى هذا القدر ، وخل ما عدا ذلك لأهله »[١] .

ومن أهم الأسباب التي دفعت بعض العلماء لانتقاد علماء آخرين هي الغيرة التي تدب بين أصحاب الفن الواحد ، ومن المؤسف أن مثل هذه الانتقادات تخرج عن إطار العلم والمعرفة ، كما كان يرمي ابن الكركي[٢] السيوطي بأمور تافهة ، فهو يعيب السيوطي بكونه ولد فقيرا .

---

[٤] محمد بن عبدالرحمن بن أبو بكر بن عثمان بن محمد السخاوي الأصل نسبة إلى بلدة سخا المجاورة لمدينة كفر الشيخ بشمال دلتا النيل ، ولد في عام ٨٣١هـ ، وتوفي في مكة سنة ٩٠٢هـ ، وكان عالما مشهورا في عصره، وله مؤلفات كثيرة منها كتب الحديث والسيرة النبوية ، والتاريخ، والتراجم ، والطبقات ، أنظر كتابه الضوء اللامع ، ص ٢ - ٣٢

[١] السيوطي - تدريب الراوي ، ص ٢٦

[٢] إبراهيم بن عبدالرحمن بن إسماعيل ، وكنيته أبو الوفاء ، واتخذ لنفسه لقب برهان الدين، أحد علماء عصره ، مات في سنة ٩٢٢هـ ، أنظر: السخاوي - الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما السيوطي فإنه يدافع عن تهمة الفقر قائلا في رسالته :« وأما ازدراؤك لي بالفقر ، فإنه عند الله من المكرمات ، وقد قالت العلماء : المال لا يتفاخر به ذوو المروءات »[١] .

على أية حال فإن خصومات العلماء لم تبلغ حد التهديد والإنذار ، والفخر المبالغ فيه ، وإظهار العظمة والتنويه بالقوة ، والقدرة على البطش وسفك الدماء ، والحقيقة كامنة في أنهم إذا كانوا أمام الناس علماء أبرارا ، فهم في حقيقتهم بشر ، والبشر غير معصومين ، ومن ثم فإنهم يخطئون ويصيبون .

---

[١] السيوطي - تدريب الراوي ، ص ١٩ - ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١

بناء الرسالة

كان الكتّاب في العصر المملوكي الثاني يَسْلُكُون طريقا خاصا في كتابة رسائلهم ، بحيث إنها تختلف في بعض الأحيان عن طرق كتابة الرسائل في العصور السابقة ، وهذه الاختلافات تتبين في مقدمة الرسالة ، وعرضها ، وخاتمتها. وأما في ما يتعلق بمقدمة الرسالة ، فقد اهتموا ببراعة الاستهلال ، إذ عنوا عناية كبيرة بإنشائها ، وشأنهم في ذلك شأن الشعراء الذين كثيرا ما يجددون مطالع قصائدهم .

ولذلك دأب كتّاب هذا العصر على افتتاح رسائلهم بما يتسق مع المقصد الذي تبنى عليه الرسالة ، وإلى جانب ذلك دأبوا على افتتاح رسائلهم بالبسملة إن كانت صادرة من الأداني إلى الأعالي «تبركا بالابتداء بها وتَيَمُّنًا بذكرها»[١] لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»[٢] ، مثال ذلك عهد الخليفة المعتضد بالله بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي الربيع سليمان المستكفي بالله ، وذلك في سنة ٨٤٥هـ ، يقول فيه :« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما شهد على نفسه الشريفة ، حرسها الله وحماها ، وصانها من الأكدار ورعاها ... »[٣].

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢١٤

[٢] المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢١١

[٣] السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٩٠ - ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما إذا كانت الرسائل صادرة من الأعلى إلى الأدنى فإنه يجوز أن تستفتح بأي شيء من أسماء الله سبحانه وتعالى ثم يتبعون البسملة بحمد الله تعالى امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم :« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم »[١] ، مثال ذلك مرسوم أصدره السلطان منصور بن عبدالعزيز بن برقوق بتقليد شهاب الدين بن حاجي خطابة جامع بني أمية في دمشق ، وذلك في سنة ٨٠٨هـ ، قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي أطلع شهاب الفضائل في سماء معاليها... »[٢] .

وبعد التحميد تبدأ الرسالة بمقدمة مناسبة ممهدة للموضوع لأنها ركن من أركان الكتابة الديوانية ولا يحسن بالكاتب أن يخلي كلامه - وإن كان وجيزا - من مقدمة يفتتح بها الرسالة ، وقد جرت سنة الكتاب في جميع الكتب كالفتوح والتهاني والتعازي على ذلك ، ويجب أن تكون المقدمة مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض[٣] .

كتب سلطان مصر الملك الأشرف إينال إلى السلطان العثماني محمد الفاتح مهنئا بفتح القسطنطينية ، يقول فيها بعد الحمد لله : « ... ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ... »[٤] ، وهذه العبارات تكتب لكونها مقدمة لما بعدها من تهنئة بانتصار المسلمين في المعركة ضد الكفار .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢١٥

[٢] المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٧٤ - ٧٧

[٣] المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٦٨

[٤] حمادة - الوثائق السياسية والإدارية في العصر المملوكي ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما غلب الدعاء للمخاطب على مقدمات أكثر الرسائل ، وكان معظم هذا الدعاء لا يخلو من معنى آية أو خبر نبوي أو بيت شعر سائر أو مثل عربي ، وإذا كانت الرسالة موجهة للخليفة أو للديوان العزيز يكون الدعاء فيها «بما فيه معنى دوام العز والسلطان وبسط الظل وما أشبه ذلك »[١] ، ويقترن الدعاء عادة بمدح الخليفة والإشادة بمآثره على المسلمين ، مثال ذلك رسالة سلطان مصر الملك الأشرف إينال السابق التي تبدأ بالدعاء للمخاطب :«ضاعف الله نعم المقر الشريف العالي المولوي الأولوي الكبيري العالمي ... »[٢] .

ومن الملاحظ أن عهود السلاطين أو الخلفاء تفتتح عادة بقول الكاتب : «عهد... » أو «هذا عهد... »، ومن ذلك العهد الذي أنشأه ابن حجة الحموي عن الخليفة المستعين بتولية مظفر شاه أحد ملوك الهند المسلمين تولية شرعية سنة ٨١٣هـ، قال في افتتاحه :«عهد شريف عهد به عبدالله ووليه سيدنا ومولانا الإمام الأعظم العباس ، أبو الفضل المستعين بالله أمير المؤمنين... »[٣] .

وقد تفتتح الرسالة بآية كريمة مناسبة للموضوع أو أن تبدأ بخطبة قد يبدؤها الكاتب بآية قرآنية ثم بحمد الله تعالى وأفضلها ما تكرر فيه الحمد ثلاث مرات ، وهذا الأسلوب في رأي القلقشندي أفضل الأساليب وأعلاها[٤] ، ومثال ذلك رسالة السلطان العثماني محمد الفاتح إلي سلطان مصر الملك الأشرف إينال ، يخبره بفتحه القسطنطينية ، يقول فيها :

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٤٨٩

[٢] حمادة - الوثائق السياسية والإدارية في العصر المملوكي ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩

[٣] القاقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٢٩ - ١٣٤

[٤] المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«بسم الله الرحمن الرحيم ، متيمنا بذكره القديم : « {اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}[١] ، يحمد الله ويثني عليه عبده المستبشر بالمبشرات المتواترة ... »[٢] .

وقد يتكرر الحمد في الرسالة ، مثال ذلك الرسالة التي كتبها محمد بن البارزي الحموي بتنصيب الملك المؤيد شيخ ملكا على دولة المماليك ، ومما جاء في مستهلها « الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادية بائدة العدا... ». وبعد ذلك يقول : « والحمدلله الذي جعل وجوه هذه الأيام بالأمن مسفرة ، وليالي جودها بالعدل مقمرة... » ويقول في الفقرة التالية :« والحمدلله الذي جعل هذه الأيام الفاضلة الجلال جليلة الفضل ، شاملة النظام ، ناظمة الشمل ... »[٣] .

ويعد حسن التخلص من المقدمة ، والانتقال إلى موضوع الرسالة الرئيس ضرورة من ضرورات الكتابة ، ولهذا اعتمد الكاتب على عدد كبير من الكلمات ليتخلص من المقدمة ويدخل في صلب موضوع الرسالة ، ومن هذه الكلمات : ينهي ، يوضح ، يحيط ، يعلم ، يشعر ، يشفع ، يرجو ، يأمل ، يقصد ، يتوخى ، يبين ، يسأل... ، مثال ذلك ما كتبه الأمير فارس الدين أمير المحمل إلى الأمير سيف الدين بتحاص ، صاحب الحجاب في الديار المصرية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الملكي الظاهري يقبل الأرض ، وينهي أن المملوك وصل إلى مكة المشرفة - شرفها الله

---

[١] سورة آل عمران : ٢٦

[٢] حمادة - الوثائق السياسية والإدارية في العصر المملوكي ، ص ٤٤٣

[٣] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٢١ - ١٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعالى وعظمها – ومن معه من الحجاج ، صحبة المحمل الشريف ، يوم الجمعة ، ثاني ذي الحجة الحرام ، وهم طيبين آمنين ... »[١] .

ثم ينتقل الكاتب إلى العرض وقد يتحدث فيه عن موضوع واحد ، كما في رسائل البشائر والتهاني بالفتوح ، ومثال ذلك في رسالة البشارة السابقة ، أن هدف كاتبها تبشير المكاتب إليه بسلامة الحج فحسب دون غيره .وقد يتحدث الكاتب عن عدة موضوعات كما هو في تقاليد الولاة وغيرها.

بعد ذلك ينتقل الكتاب انتقالا مناسبا إلى اختتام رسائلهم بعبارات واضحة سهلة الألفاظ تتناسب مع مقدمة الرسالة وعرضها ، وقد تنوعت أساليبهم في ذلك ، فقد تختتم الرسالة بالدعاء للمخاطب ، ومثال ذلك خاتمة رسالة لابن حجة الحموي يقول فيها:

« فأسبغ الله ظلال تلك الأرواح الوارفة عليك ، ومسيلت يد النسيم قدود أغصانها لتقبيل الأرض بين يديك وفي انشاء هذه التحايا ومولانا ما يرنحه إلى القرب ونشوة المدام ، أرق وألطف من يقابل برد التحية والسلام »[٢] .

أو تكون خاتمة الرسالة حمدا لله على ما أولاه من النعم أو تختتم بالأمر إذا كانت صادرة عن السلاطين أو الملوك إلى عمالهم

وقد تباينت الرسائل في أطوالها ، وذلك بحسب موضوعاتها ، ولكننا نستطيع القول ان أكثر الرسائل التي اتصفت بالطول بشكل عام هي رسائل

---

[١] ابن فرات – تاريخ ابن الفرات ، ج ١٣ ، ص ٣٤٦ – ٣٤٩

[٢] ابن حجة – تأهيل الغريب ، ورقة : ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البشائر والتهاني بالفتوح وتقاليد الولاة والخطباء ونقباء الأشراف وأصحاب الحسبة ، مثال ذلك أن الرسالة التي كتبها السلطان العثماني محمد الفاتح إلى سلطان مصر ملك الأشرف إينال يخبره بفتحه القسطنطينية تبلغ حوالي ١٢٠ سطرا[١].

أما الرسائل الإخوانية ، فقد تفتتح بالدعاء للمكاتب[٢] ، وذلك ما كتبه القلقشندي إلى المقر الفتحي أبي المعالي فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية ، وذلك في عام ٨١٤ هـ ، قائلا : « محيط دائرة الأفكار الواردة ، ومركز شعاع كواها ، ومادة عناصر الإفهام الجائلة ، وعتاد شكيمة قواها... »[٣].

وقد تفتتح الإخوانيات بأبيات من الشعر أو بآية من القرآن الكريم ، ونماذج الرسائل التي تبدأ بأبيات من الشعر رسالة تهنئة كتبها القلقشندي للمقر البدري يقول فيها:

رَفعتَ للمجد مُذْ وُليتَ بُنيانا وشُدْتَ للفضل بعد الوَهن أركانا[٤].

وتبدأ بآية من القرآن الكريم رسالة الاعتذار والتبرؤ التي كتبها فخرالدين بن مكانس حيث بدأها :(ليس على الأعمى حرج بلغني - بلغ الله سيدنا ومولانا...)[٥].

---

(١) سالم - محمد الفاتح ، ص ١٦٣ - ١٦٨

(٢) أبو هلال العسكري - الصناعتين ، ص ٢٢٤

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١٤ ، ص ٢٢٤

(٤) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٣

(٥) ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الرسائل الأدبية ، فلكونها أداة للتعبير الذاتي الانطباعي عن مشاعر الكتاب ، إلى جانب كونها ميدانا مناسبا لإظهار مقدرتهم وبراعتهم في الكتابة، فإن كتابتها لا تعتمد على نمط واحد ، وإنما تتوقف على رغبة الكتاب في اختيار نمط يليق بها ، إلا أنها لا تختلف كثيرا عن الرسائل الديوانية والإخوانية.

افتتح جلال الدين السيوطي رسالته (في تحقيق التضمين) بخطبة بدأها بقوله : « الحمد لوليِّه ، والصلاة على نبيه »[١] ، بينما افتتح ابن حجة الحموي رسالته البحرية قائلا :« يُقَبِّلُ الأرضَ التي سُقي دَوْحُها[٢] بنزول الغيث فأثمر الفواكهَ البَدْرِيَّةَ »[٣] ، وافتتح رسالة السكين على هذا النمط ، يقول فيها : « يقبل الأرض التي قامت حدود مكارمها ، وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها »[٤] .

ومنه قول ابن حجة الحموي في رسالة مجرى السوابق ، إذ بدأها بحمد الله قائلا :« الحمد لله الذي يقف عند سوابق فضله كل جواد ، ويقصر في حلبة هذا الكرم الذي ليس له غاية في بديع الاستطراد ... »[٥] .

وافتتح القلقشندي رسالته (المفاخرة بين العلوم المختلفة) بحمد الله قائلا : « الحمد لله الذي جعل للعلم جلالا تود جلائل الفضائل أن تكون له أتباعا ، وأطلق

---

[١] الشكعة - جلال الدين السيوطي ، ص ٢٤٨

[٢] الدوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة .

[٣] رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي ، ص ٩٠

[٤] المرجع نفسه ، ص ٩٩

[٥] ابن حجة - تأهيل الغريب ، ورقة ٢٦ - ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألسنة الأقلام من جميل ثنائه بما أنطق به ألسنة العالم... »[١]

ومن الرسائل التي نقف عندها في هذا المجال أيضا، رسالة فخرالدين بن مكانس في فيضان النيل حيث افتتحها بالآية القرآنية قائلا فيها :

« رب اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين ، وسلام على نوح في العالمين »[٢] .

وقد يكون انتقال الكاتب من الافتتاح إلى العرض في الرسائل الإخوانية بعبارات مختلفة ، منها عبارة (أما بعد) ، ومثال ذلك ما كتبه ابن حجة الحموي عن الملك المؤيد شيخ جوابا إلى صاحب تونس « أما بعد حمد الله مؤيد من شاء من عباده، ... »[٣] .

بينما تخلص فخر الدين بن مكانس من الافتتاح إلى العرض في رسالة كتبها إلى زين الدين بن أبي بكر العجمي بعبارة « بلغني - بلغ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم ... »[٤] .

وأما الرسائل الأدبية فقد يتخلص الكتاب من الافتتاح إلى العرض بعبارات كثيرة ، وفي بعض الأحيان فإنها شبيهة بالرسائل الإخوانية في براعة الاستهلال وحسن التخلص ، وقد انتقل ابن حجة من الافتتاح إلى العرض في (الرسالة البحرية) بعبارة : « وينهي ، بعد أدعية ما برح المملوك منتصبا لرفعها... »[٥] .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص ٢٠٤

[٢] المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٢٦٨

[٣] رزق سليم - تقي الدين ابن حجة الحموي ، ص ٩٦

[٤] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٢٦

[٥] رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي ، ص ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تخلص السيوطي في رسالته (في تحقيق التضمين) بعبارة «وبعد : فهذه رسالة في تحقيق التضمين...»[١]، وكذلك تخلص بالبعدية في رسالته (حروف الهجاء) بقوله :«وبعد : فهذا ما لخصته في أجوبة...»[٢]، كما تخلص بعبارة «فائدة : في أسماء الخمر»[٣] في رسالته (في المترادف).

وأما الرسائل الإخوانية والأدبية فقد تختتم بالدعاء، مثال ذلك ما كتبه القلقشندي في شكوى بهموم المملوك، وفي اختتام رسالته يقول :«والله أسأل الحسن، والعافية، والختام، وتمحيص الأوزار والآثام»[٤]، كذلك اختتم ابن حجة رسالته البحرية بقوله :«والله تعالى يمن بقرب المثول بين يديه ليحصل للمملوك بعد التخلص من البين حسن الختام»[٥]، أو تختتم بأبيات من الشعر، كما اختتم القلقشندي رسالته في مدح المقر الفتحي أبي المعالي ببيت من الشعر، يقول فيه :

ولو أن لي في كل منبتِ شَعرةٍ لسانا يُطيل الشكر فيه لقصَّرا[٦].

---

[١] السيوطي - الكشاف، ج ١، ص ٢٠

[٢] الشكعة - جلال الدين السيوطي، ص ٢٦٠

[٣] المرجع نفسه، ص ٢٧١

[٤] القلقشندي - صبح الأعشى، ج ٩، ص ١٧٥

[٥] رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي، ص ٩٥

[٦] القلقشندي - صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٢٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢

الأسلوب

لعل من أهم الأمور التي يجب مراعاتها في الحديث عن الأسلوب هو مناسبة الأسلوب للموضوع ومراعاة إعطاء كل مقام حقه من حيث الإيجاز أو الإطناب أو المساواة .

ذكر ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) أن جماعة من مدعي علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم إلى قسمين فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات ، ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرأ على ملأ من عوام الناس ، فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم[١].

الألفاظ والمعاني :

لقد اهتم كتاب هذا العصر بالألفاظ اهتماما فائقا ، وبرعوا في أساليبهم التي تباينت بتباين مقدرتهم على الكتابة ، فقسم كبير منهم قد أحسن في انتقاء ألفاظه لتتناسب مع معاني الرسالة وموضوعها ، لأن على الكاتب الذي يقدم معنى بديعا أن يلتمس « له لفظا يناسبه ، فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظه

---

[١] ابن الأثير - المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شريفا »[١] ، ولأن اللفظ - كما يقول ابن الأثير - «كالصورة ، والمعنى كالروح ، فإن اتفقا وقع الكمال ، وإن اختلفا وقع النقص »[٢] .

ونلمس الجزالة والعناية باللفظ في رسائلهم الديوانية ذات الطابع الرسمي، أو في رسائلهم الإخوانية ، فقد مالوا في بعض الأحيان إلى الألفاظ الرقيقة التي تناسب الموضوع الذي يتحدثون عنه ، أما بعض الألفاظ الغريبة فقد لجأوا إليها للوصول إلى السجع أو الجناس أو غيرهما ، فقد كان قوام أسلوب معظمهم البديع والاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف والموروث الأدبي من شعر ومثل وحكمة وخطب قديمة ورسائل سالفة .

وعلى الكاتب أن يراعي في الرسائل الديوانية تخير الكلام والمعاني ، فلا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق ، فإن مجال الكلام عليه متسع والبلاغة تظهر في القليل والكثير .

لقد صاغ الكتاب ألفاظهم في عبارات فصيحة واضحة بعيدة عن الركاكة والغموض والتعقيد الذي يستهلك المعاني ، كما اهتموا بتنقيح الألفاظ والعبارات والتأنق في تجديدها للدلالة على البراعة والتقدم في الصنعة ، وبالغوا في الإهتمام بالصنعة البديعية متأثرين بمن سبقهم من الكتاب في هذا الباب ، ومنهم القاضي الفاضل الذي عد شيخ صناعة الكتابة في عصره ، ونسبت إليه هذه الطريقة فقيل الطريقة الفاضلية[٣].

---

[١] السيوطي - الجامع الكبير ، ص ٢١

[٢] ابن الأثير - كفاية الطالب ، ص ٤٥

[٣] شوقي ضيف - الفن ومذاهبه، ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان القاضي الفاضل الذي تأثر بأسلوبه جُلّ كتّاب العصر المملوكي الثاني قد التزم في منهجه جملة أمور منها السجع ، وربما لزم فيه ما لا يلزم ، والاقتباس الدقيق من القرآن الكريم ، والجناس الخفيف المقبول ، ومراعاة النظير ، والترادف، والطباق ، والاعتماد على المجاز ، وكانت طريقته تلك في الكتابة مثار إعجاب ، ومحل ثناء كتاب هذا العصر.

× × ×

ونلاحظ ميل الكتاب إلى الإطناب في رسائل التهاني بالفتوح وفي تقاليد الوظائف الكبرى ، وقد يقودهم الأمر إلى المبالغة في إسباغ الألقاب والصفات الرفيعة على المخاطب في مقدمات رسائلهم أو في ثناياها ، ونلمس تلك المبالغة في الرسالة التي كتبها شهاب الدين القلقشندي في مدح المقر الفتحي صاحب دواوين الإنشاء يهنئه فيها بصحابة الديوان ، وتقع هذه الرسالة في نحو (١١٣) سطرا تحدث فيها باطناب عن الرياسة في الدول ، وأنها تستمد من القرب من الملك ، وبين منزلة صاحب الديوان في الدولة ، ثم شرع في مدح المقر الفتحي (فإنه كليم الملك، وعميد المملكة ، والوساطة بين الملك والرعية) ، وذكر أن الديوان ظل خُلُوًا من صاحب يرأسه حتى أُخْتِيْرَ المقر الفتحي له ، فتلقت الأيام بالبشرى رياسته ، ونعته بحسن الرأي ، ودقة التدبير ، ولطف السفارة ، وعلو الكعب في الخط والإنشاء ، ووازنه ببعض كرام الكتاب السابقين كالحسن بن سهل ، وأخيه الفضل بن سهل ، وأبي علي بن مقلة ، ووصف بيانه بالسحر الحلال ، وأقلامه بالصوارم ، بل هي تهزأ بالصوارم والأسل ، وذكر أن كرمه يغني من الإملاق إلى غير ذلك من الصفات[1].

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نلحظ في أسلوب بعض الرسائل الاطالة في الدعاء فضلا عن إيراد الصفات الحميدة للمخاطب ، وأكثر ما يلاحظ ذلك في الرسائل الديوانية ، مثال ذلك عهد المستعين بالله الخليفة العباسي بتنصيب الملك المؤيد شيخ ملكا على دولة المماليك ، فإن الدعاء يتضمن ٩٠ سطرا من العهد الذي يتكون من ١٦٦ سطرا[١] ، وتعد البشارات من أكثر الرسائل التي يتاح فيها لمنشئها ألوان من الوصف والمبالغة والإطناب إذ يتيح موضوعها للكاتب أن يكون حر الزمام في إيراد ما يريد قوله ، ومنها بشارة ابن حجة بوفاء النيل ، يقول فيها :« ... وشبب خريره في الصعيد بالقصف ، ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب... »[٢] .

ولا ينسحب الإطناب على كل الرسائل ، فهناك رسائل يميل فيها كاتبها إلى الإيجاز ، منها رسالة أرسلها الشائر شيخ إلى تغري بردي أتابك السلطان الناصر فرج بن برقوق يطلب الصلح ويقول فيها :«صن دماء المسلمين ، واجعلنا عتقاءك ، وما لك فينا جميلة ... »[٣] إلى آخرها ، وهي تتكون من خمسة أسطر ، إذ إن طبيعة مضمونها تحتم الإيجاز والدقة في اختيار اللفظة المناسبة .

وفي الرسائل التي تكتب عن السلطان في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور أو بعد فتح بلدة من البلدان « فعلى الكاتب أن يفصل القول في وصف العزائم ، وقوة الهمم ، وشدة الحمية للدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة ، وتخيل أسباب النصر ، والوثوق بعوائد الله في الظفر ، وتقوية القلوب ، وبسط الآمال ، والحث على التيقظ، ومن ذلك ما أشبهه ، ويبرز ذلك في أمتن كلام

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٢١ - ١٢٨

[٢] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٢١

[٣] ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ، ص ٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأجله ، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللين والرقة ، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى واستنزال نصره وتأييده ، والاعتصام به في الصبر ، والاستعانة به على العدو ، والرغبة إليه في خذلانهم وزلزلة أقدامهم وجعل الدائرة تدور عليهم »[١].

أما الإخوانيات فالإطالة والإيجاز فيها يعود للكاتب نفسه ، إن شاء أطال ، وإن شاء أوجز ، فذلك يعود بحسب اختياره أو بحسب ما بين الصديقين من المودة والقرب ، وما يعلمه كل واحد منهما من خلق الآخر وما توجب دالته عليه[٢].

وقد فصل القلقشندي القول في مواطن الإيجاز في المكاتبات ، فقد حددها في المواضع التالية :

أولا: أن يكون المكتوب عن السلطان في أوقات الحروب إلى نواب الملك .

ثانيا: أن يكون ما يكتب عن السلطان خبرا يريد التورية به عنه وسَتْرَ حقيقته كإعلامهم بالحوادث العامة عن الملوك والنوائب الملِمَّة بالدولة من هزيمة جيش أو تكليف الرعية ما لا يَسْهُلُ عليها تكليفه وما أشبه ذلك .

ثالثا: أن يكون المكتوب به عن السلطان أمرا أو نهيا.

رابعا: أن تكون الكتب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخراج وجباية الأموال وتدبير الأعمال .

---

[١] الحلبي - حسن التوسل ، ص ٣٣٢

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا: أن يكون ما يُكتب به عن السلطان إحمادا أو إذماما أو وعدا أو وعيدا أو استقصارا أو عذلا أو توبيخا[١].

ولم يقتصر الكتاب على بيان ذلك في الموضوعات العامة ، بل بينوا أي الأجزاء من المكاتبات التي يجب فيها الإطالة والإطناب وأيها يجب فيه الإيجاز ، فمن ذلك ما ذكره القلقشندي حين بين أن «الاختصار في التحميدات في الخطب مفضل ، بينما الإطناب في الوصايا محبب أكثر إلا لمن جل قدره وعظم أثره»[٢].

× × ×

وقد تنوعت الأساليب التي استخدمها الكتاب بحسب مقتضيات الحال وحسب الموضوع الذي يتحدث عنه ، فاستخدموا الأسلوب الخبري في مواضعه، واستخدموا الأسلوب الإنشائي في الأماكن التي تقتضي ذلك ، كما استخدموا الحوار أحيانا ، وراوح الكتاب بين الجمل القصيرة والطويلة بحسب مقتضيات الحال أيضا ، ومثال ذلك ما كتبه السيوطي في رسالته (تحقيق التضمين) يقول فيها : « ...أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم - إلى الأرض - ساجدين كأنهم أخذوا وطرحوا طرحا ، فإن قلت : فاعل الإلقاء ، ما هو لو صرح به ؟ ، قلت : هو أنه عز وجل بما خولهم من التوفيق ... »[٣].

نلاحظ في النص السابق أن استخدام الكاتب أسلوب الخبر والإنشاء فلم يكن عبثا، وإنما جاءا ليسّهلا القراء في فهم النص فهما دقيقا .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٣٠٢

[٢] المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٧٨

[٣] الشكعة - جلال الدين السيوطي ، ص ٢٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر القرآن الكريم والحديث الشريف :

دأب أكثر كتاب هذا العصر على اقتباس الآيات القرآنية ، ولا عجب في ذلك، فثقافة معظم هؤلاء الكتاب مستمدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والموروث السالف . وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله :« الترقي إلي درجة الاجتهاد في الكتابة فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة إلا أن رأسها ، وعمودها ، وذروة سنامها ثلاثة أشياء هي حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية والأشعار »[١].

وقد يأتي الكاتب بنص الآية القرآنية أو بجزء منها ، أو لا يأتي بنص الآية القرآنية بل يَعمِد إلى نثرها أو حلها ، وقد كشف ذلك عن محفوظهم الغزير من القرآن الكريم ، وعلى مقدرة على الاقتباس في المواقف التي تتطلب ذلك .

إلا أن الأدباء اختلفوا في إثبات الحكم على هذا الاقتباس ، فمنهم من يقسمه إلى ثلاثة أقسام : مباح ، ومقبول ، ومردود ، وهذا ما ذهب إليه ابن حجة الحموي وبعض الأدباء الآخرين . فالأول ما كان في الخطب ، والمواعظ ، والعهود ، ومدح النبي عليه الصلاة والسلام ، والثاني ما كان في الغزل والرسائل والقصص ، والثالث ما ينسب الكاتب فيه إلى نفسه شيئا مما نسبه الله لذاته ، أو تضمين آية كريمة في معنى هزل ساقط[٢] .

---

[١] ابن الأثير – المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٢٨

[٢] ابن حجة – خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٤٥٥ – ٤٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من هذا الرأي ، فإن بعض الأدباء استمروا في اقتباس الآيات القرآنية في رسائلهم التي تتعلق بوصف الخمر أو استدعاء إلى مجلس شراب ، ومنها ، رسالة كتبها بدر الدين بن الصاحب إلى الصاحب فخر الدين بن مكانس ، يستدعيه فيها إلى مجلس شراب ، وبعد المقدمة التي يغريه فيها بالحضور ، يقول :

« كأنها خلقت نشوانة من الطينة ، حديثُها السحرُ الحلال ، وعتيقها خَلعُ الدلال تطيّب عيشَ الجلاس ، وتحرّك أذن الوسواس ، من القاصرات الطرف في كل قصر ، وهي على الإطلاق منحة العصر ».

والاقتباس من القرآن الكريم بيِّنٌ في قوله :« من القاصرات الطرف » إشارة إلى الآية الكريمة {وعندهم قاصِرات الطرْف عين}[١] ، وهو يعمد إلى حلها.

وفي مجال ترغيبه لصاحبه بحضور ذلك المجلس ، ينقل له قول الندمان الذين لسان حالهم يقول فيها :« وفيها منافع للناس ، أنفاسها زكية ومكارمها حاتمة ».

واقتبس الكاتب الآية الكريمة عن تحريم الخمر{ومنافع للناس}[٢] بذكر كلمتين من الآية .

وأما اقتباس الآيات القرآنية بنصها ، فإنه جلي في الرسائل عن حالات المحن والكوارث ، فإن الكاتب يستعين أكثر بآيات من الذكر الحكيم ، والدعاء ، والصلوات ، ليرفع الله هذا الكرب الذي حل بالناس ، ونرى ذلك جليا في الرسالة

---

[١] سورة الصافات : ٤٨

[٢] سورة البقرة : ٢١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي دبجها فخر الدين بن مكانس متحدثا فيها عن وصف النيل وزيادته المفرطة في ذلك العام ، فقد هددت الزرع والناس ، يبدأها مقتبسا من آيات القرآن الكريم بقوله :

« رب اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين ، {وسلام على نوح في العالمين}[١] ».

ويستمر على ذلك موردا بعض الآيات بنصها ليدلل على مقدار ما أحدثته زيادة النيل من رعب ، وهلع في نفوس الناس ، فيقول متحدثا عن القرى التي أغرقها الماء :

« وقُراها الغَربية ، وقد قلتُ لها حين أوتْ إلى أعالي الأرض هربا من المياه واعتصمتْ بالجبل الغربي : {لا عاصم اليوم من أمر الله}[٢] ، وكل سفينة وقد علتْ على وجه الماء ، وارتقتْ لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابُها عند الفراق ألا ترجعي ، وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل {يا سماء اقلعي}[٣] ، والنيل تبدو عليه القلوع خافية ، فكأنها الخيام بذي طلوع وجار على الناس بطغيانه فكأنما هو أخو فرعون مصر أو ابن طوفان نوح »[٤].

ونلمس بجلاء كيف أفاد كاتب الرسالة من الطوفان الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، كما أنه عمد ، فضلا عن ذلك ، إلى اقتباس الآيات بنصها منها { لا

---

[١] سورة الصافات : ٧٩

[٢] سورة هود : ٤٣

[٣] سورة هود : ٤٤

[٤] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاصم اليوم من أمر الله} و {يا سماء اقلعي} .

وفي وصفه للقصب الذي أغرقه الماء يقول :

« والقصب بالحيرة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب »[١] ، وإفادته من القرآن الكريم هنا جلية في قوله {بئس الشراب}[٢] .

وفي رسالة مدح أنشأها شهاب الدين القلقشندي ، يقول فيها :

« وأقام لنصرتها بَأْسَ الأقلام وصفاحَ المهارق من إذا طرقَها على البعد طارق تلا لسان براعته {نصر من الله وفتح قريب}[٣] »[٤] ، فقد اقتبس القلقشندي الآية الكريمة بنصها.

أما الآيات التي ترد في ثنايا الرسالة فتأتي في حديثه عن البركة التي عمت الناس بقوله :

« وأطال الله عمر زيادته فتردد الناس على الآثار ، وعمته البركة ، فأجرى سواقي مكة إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار ... ، وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية ، فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب »[٥].

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٦٨

[٢] سورة الكهف : ٢٩

[٣] سورة الصف : ١٣

[٤] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٤٨

[٥] المصدر نفسه ، ص ٤٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجلي اقتباسه الآية الكريمة {جنات تجري من تحتها الأنهار}[١] ، واقتباسه أيضا الآية الكريمة {جنات من نخيل وأعناب}[٢].

وحتى في الرسائل والمكاتبات الطريفة ، قد يعمد الكاتب إلى الاقتباس من القرآن الكريم ، ففي مكاتبة في البشرى والاعتذار، دبجها فخر الدين بن مكانس إلى الصاحب زين الدين بن أبي بكر العجمي ، وقد أثار بينهما الخلاف رجل ضرير من أهل القيروان ، نرى الكاتب قد بدأ رسالته بآية من القرآن الكريم ، قال في مفتتح رسالته :

« {ليس على الأعمى حرج}[٣] ، بَلَغَني بَلَغَ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة، الأديب الشاعر ، الناظم الناثر ... »[٤].

وفي نهاية الرسالة يقتبس آية أخرى من القرآن الكريم إذ يقول : « وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى وتردد إليه مرة أخرى ، {فعبس وتولى أن جاءه الأعمى}[٥] »[٦].

ومن أبرز الرسائل التي اقتبس كاتبها من الآيات القرآنية ، الرسالة التي كتبها السيوطي ، ومما جاء فيها :

---

[١] سورة البقرة : ٢٥

[٢] سورة البقرة : ٢٦٥

[٣] سورة النور : ٦١

[٤] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٤٨

[٥] سورة عبس : ١ - ٢

[٦] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«إن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي {يذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال}[١] ، وبيته الحرام الذي جعله قياما للناس {مباركا وهدى للعالمين}[٢] ».

وقد تأتي في ثنايا الرسالة ألفاظ قرآنية وليس آيات بأكملها ، وهذا وارد تماما، فمعظم أدباء العصر كانوا على ثقافة عالية واطلاع واسع على القرآن الكريم ، لذلك نجد فضلا عن الآيات القرآنية كلمات : الحمد والدعاء إلى غير ذلك مما يمت بصلة إلى إيمانهم وإلى ما حفظوه من آي الذكر الحكيم.

وواضح كيف نثر الكاتب عددا من الآيات القرآنية ، إذ لم يوردها بنصها في موازنته بين النار والتراب ، ومما ورد في هذه الرسالة أيضا قوله :

«الماء الذي جعل الله تعالى كل شيء منه حيا ، والتراب الذي جعله الله خزانة المنافع والنعم» ، وواضح أن الكاتب اقتبس الآية القرآنية : {وجعلنا من الماء كل شيء حي}[٣].

ولابن حجة الحموي بشارة في وفاء النيل اقتبس فيها الكثير من الآيات القرآنية فضلا عن إشارات من القرآن لم تأت بنصها بل حلها ، كقوله في مستهل البشارة: «وتبدي لعلمه ظهور آية النيل المبارك الذي عاملنا الله فيه بالحسنى »[٤].

× × ×

---

[١] سورة النور : ٣٦

[٢] سورة آل عمران : ٩٦

[٣] سورة الأنبياء : ٣٠

[٤] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٣٢ ، وانظر السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى جانب الآيات القرآنية الكريمة التي كثر ورودها في رسائلهم ، هناك رسائل أخرى تتضمن الأحاديث النبوية الشريفة ، فهي تأتي في الرسائل بنصها الكامل ، أو جزء منها ، أو يؤخذ معناها دون نصها ، وهي منثورة في سياق الرسالة، «ويُتَصَرَّف فيه بوجوه التَّصَرُّفَات»[١] ، والنوع الثاني أكثر دورانا في رسائل هذا العصر .

في الرسالة التي كتبها ابن حجة الحموي :

«نحمده على أن جعل لنا الخير معقودا بنواصي الخيل ، ونشكره شكرا نعلو به أشهب الصبح» ، ويتضح من قول ابن حجة السابق أنه تأثر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ...الخير معقود في نَواصي الخيل إلى يوم القيامة »[٢] .

وكذلك قوله : « ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قائد الغُرِّ المُحَجَّلِين »، ومن الواضح أيضا أنه مأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ...إجعلنا من عبادك المنتخَبين المحجلين »[٣] ، وقول الرسول في حديثه :

« ... غُرًا محجلين من آثار الوضوء »[٤] .

وفي رسالة أخرى كتبها فخر الدين بن مكانس إلى الصاحب زين الدين بن

---

[١] ابن الأثير – المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٢٧

[٢] حديث رواه البخاري في المناقب : ٢٨ ، ورواه مسلم في باب الزكاة : ٢٥

[٣] رواه أحمد بن حنبل في مسنده.

[٤] رواه البخاري ، في باب الوضوء : ٢ ، ورواه مسلم في باب الطهارة : ٣٤ – ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبي بكر العجمي في التبرئ والاعتذار قوله « ... زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين...»[١] ، فكلمة «قرة عين» شبيهة بما يقوله رسول الله في حديثه :

« ... وجعلت قُرَّة عيني في الصلاة »[٢].

وفي الرسالة السابقة التي كتبها بدر الدين بن الصاحب إلى الصاحب فخر الدين بن مكانس يستدعيه فيها إلى مجلس شراب ، فإنه اقتبس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول :« ...حديثها السِحْرُ الحلال ، ...» ، ونص الحديث الشريف :

« إن من البيان لَسِحْرا »[٣].

ومما يسترعي انتباهنا أن إهتمام الكتاب في هذا العصر بالحديث النبوي والتأثر به عند كتابة الرسائل ، أقل من إهتمامهم بالقرآن الكريم ، ولذلك نجد أن معظم الكتاب قد اقتطفوا كثيرا من آيات القرآن الكريم واستشهدوا بها .

أثر التراث الأدبي السالف :

يشتمل الموروث الأدبي على الشعر ، والنثر ، والحكم ، والأمثال ، وأقوال البلغاء العرب فضلا عن الرسائل القديمة التي تأثر بها كتاب هذا العصر ، وساروا على منوالها أو عارضوها .

---

[١] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٤٨

[٢] رواه النسائي في باب النساء

[٣] أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود وأبو هريرة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن أكثر ما يبرز في رسائلهم هو ميلهم إلى تضمين أشعار الشعراء العرب القدماء ، ويتجلى هذا بصورة واضحة في رسائلهم الإخوانية والأدبية « أما مكاتبات الملوك فقل أن تستعمل فيها الأشعار أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور »[١].

ولنا أن نلاحظ بجلاء أن قيامهم بتضمين بعض الأبيات الشعرية يهدفون من خلاله إلى عدة أمور منها دعم حجتهم ، والرأي الذي يأتون به ، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية تزيين نثرهم بأبيات شعرية معروفة ومشهورة لكي يكون النثر ذا قيمة فنية عالية ، فضلا عن أمر ثالث وهو بيان ثقافتهم وحسن اطلاعهم على دواوين الشعراء وعلى الموروث الشعر العربي .

ونجد في بعض الأحيان أن الرسائل قد تأتي كلها شعرا ، وذلك ما كتبه القلقشندي للمقر البدري محمود الكلستاني مهنئا له باستقراره في كتابة السر الشريف بالديار المصرية في الدولة الظاهرية (برقرق) في سلطنته الأولى قوله :

رَفَعْتَ للمجدِ مُذْ وُلِّيْتَ بُنيانا وشِدْتَ للفضل بعد الوَهْن أركانا

وأصبح المُلك في زَهْوٍ ومالكه يَمِيْسُ عُجْبًا وَهَنًّا التَخْتُ إيْوَانا

قَدِمْتَ مِصْرا فأمْسَتْ منك في فَرَحٍ تَهُزُّ بالبِشْرِ من لُقْيَاك أردانا

وغُوْدِرَ النِيْلُ مُذْ وافيتَ مُبْتَهِجًا وقد رَمى الصَّدُّ والإبعادُ جَيْحانا[٢]

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشي ، ج ١ ، ص ٣٢٣

[٢] المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يأتي البيت الشعري في ثنايا رسائلهم بنصه الذي ورد في دواوين الشعراء أو يعمدون إلى نثره ، وعلى سبيل المثال أن الرسالة التي أنشأها القلقشندي في مدح المقر الفتحي صاحب دواوين الإنشاء سنة ٨١٤ هـ ، جاء بجزء من مطلع معلقة امرئ القيس الشهيرة:

« قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَخُول فَحَومَل »[١] .

فقال في رسالته : « وانهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من الفَرَقِ : قفا نبك من ذكرى حبيب ، وأقام لنصرتها بأسل الأقلام »[٢] .

أما في الرسالة التي كتبها ابن حجة الحموي في وصف الخيل والتي أسماها (مجرى السوابق) ، فيورد بيتا من قصيدة أبي تمام في فتح عمورية والتي مطلعها :

« السَيْفُ أصدق أنباءً من الكُتُبِ في حَدِّهِ الحَدُّ بين الجِدِّ وَاللَّعِبِ »[٣]

وفي موضع أخر يأتي بعجز بيت من أبيات أبي تمام وهو في معرض وصفه للخيل :

والنصر في أشْهب يبدو بطلعته يوم الخميسين لا في السبعة الشُهُبِ

حيث قال أبو تمام في قصيدته :

---

[١] الزوزني-شرح المعلقات السبع ، ص ٤

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٩١

[٣] أبو تمام - شرح الصولي لديوان أبي تمام ، ص ١٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعلم في شُهُبِ الأرْمَاح لامِعَةٌ بين الخميسين لا في السبْعة الشُهُبِ[١]

وفي الرسالة نفسها يرد أيضا نص آخر إذ يقول ابن حجة في وصف الفرس الأشهب : « ما قَرعَ بيده بنيةً إلا سقطتْ ساجدةً لصعوده بهاتيك المزايا - وقال بياضه منشدا : أنا ابن جَلا وطلاع الثنايا ».

ولا يخفى أنه ضمن البيت الذي قاله الحجاج بن يوسف الثقفي عندما ولى العراق وألقى خطبته المشهورة الذي قال فيها :

« أنا ابن جَلا وطلاعِ الثنايا متى أضَعِ العمامةَ تَعْرِفُوْنِي »[٢]

وفضلا عن الأبيات الشعرية المشهورة التي أوردوها في رسائلهم الإخوانية والأدبية ، فقد قاموا أيضا بإيراد عدد من الحكم والأمثال العربية المشهورة ، وكلام البلغاء من خطباء العرب ومتفوهيهم ، كما مال عدد منهم إلى ذكر أسماء بعض الكتاب وأصحاب البلاغة ممن ألفوا كتبا معروفة في تاريخ الأدب العربي .

ويرى بعض الأدباء أن « التمثل بالمثل السائر في موضعه من أحسن أنواع الكتابة وأعظم فنونها »[٣] ، قد تأتي بعضها في الرسائل بنصها الكامل ، وبعضها الآخر بالنثر أو بعد حلها .

---

[١] أبو تمام - شرح الصولي لديوان أبي تمام ، ص١٩٠

[٢] المبرد - الكامل ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، وأنظر ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ١٧٥

[٣] ابن شيث - معالم الكتابة ، ص ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثال ذكر أسماء الكتاب ، وأصحاب البلاغة في رسائلهم ، ويضرب المثل في الفصاحة والبلاغة ، ما كتبه القلقشندي في تهنئة أبي المعالي فتح الله[١] ، إذ ورد في هذه التهنئة أسماء بعض بلغاء العرب وكتابهم المشهود لهم بالبلاغة والبيان جاء فيها :« إن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال ، أو حاور أتى من البلاغة بما يُقَصِّرُ عن رتبته سحبان[٢] في المقال ، أو ترسّل أعيا عبد الحميد[٣] في رسائله »[٤]. وفي النص أعلاه إشارة إلى أحد أشهر خطباء العرب وهو سحبان وائل وإلى واحد ممن اشتهروا بكتابة الرسائل وهو عبدالحميد الكاتب .

وفي التهنئة نفسها التي اختتمها القلقشندي بالاعتذار لأبي المعالي عند تقصيره في مدحه يقول :

« على أني أستقيل عثرتي من التقصير في إطرائه والتعرض من مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو كان الجاحظ[٥] نصيري وابن المقفع[٦] ظهيري ، وقُس بن

---

(١) فتح الله العجمي ، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الناصر فرج بن برقوق ، أنظر ، ابن الصيرفي - نزهة النفوس ، ج ٢، ص ٣٠٢

(٢) سحبان بن زُفر بن إياس ، عاش في الجاهلية والإسلام ، توفي سنة ٥٤هـ ، يضرب به المثل في بلاغته وخطبه فقيل (أخطب من سحبان وائل) ، أنظر ، الزركلي - الأعلام ، ج ٣ ، ص ٧٩

(٣) عبدالحميد بن يحيي بن سعد العامري ، بالولاء المعروف بالكاتب : عالم بالأدب من أئمة الكتاب ، يُضرب به المثل في البلاغة ، وسكن الشام ، قتل في بصير (بمصر) سنة ١٣٢هـ ، أنظر ، ابن خلكان - وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، وأنظر الزركلي - الأعلام ، ج٤ ، ص ٦٠ - ٦١

(٤) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٢٤

(٥) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، البصري ، المعتزلي ، المعروف بالجاحظ ، عالم ، أديب ، ولد بالبصرة سنة ١٥٠هـ ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، مات سنة ٢٥٥هـ ، أنظر الذهبي - سير النبلاء ، ج ٨ ، ص ١٤٠ ، وأنظر عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ٨ ، ص ٧

(٦) عبدالله بن المقفع (١٠٩هـ - ١٤٢هـ) كاتب ، شاعر ، أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربي، فارسي الأصل ، نشأ بالبصرة ، واتهم بالزندقة ، فقتل بالبصرة ، أنظر عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ٦ ، ص١٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ساعدة[١] يسعفني، وسحبان وائل ينجدني... ، لكان اعترافي بالعجز في مدحه مما آتيه ، وإقراري بالتقصير في شكره أولى مما أصفه من توالي طوله وأياديه :

ولو أن لي في كُلِّ مَنْبِتِ شَعْرَةٍ لسانا يُطِيْلُ الشكر فيه لقَصَّرَا[٢]

نلاحظ من خلال هذا النص ، كيف أن القلقشندي قد بالغ في مدحه للمقر الفتحي، ومع ذلك فهو يعتذر عن تقصيره في المدح ، ويورد أسماء عدد من بلغاء العرب أثناء اعتذاره ، ومدحه للمقر الفتحي ، منهم : قُس بن ساعدة الأيادي من خطباء الجاهلية المشهورين ، وسحبان وائل، وعمرو بن الأهتم ، ويضرب بهم المثل في البلاغة ، والفصاحة ، يقال : « أبلغ من قُسٍّ »[٣]، ويقال : « أخطب من سحبان وائل »[٤] فضلا عن أدباء العصر العباسي المشهود لهم بالبلاغة والبيان وهما الجاحظ وابن المقفع .

وفي رسالة فخر الدين بن مكانس في وصف زيادة النيل نلاحظ أيضا أن هذه الرسالة تحتشد فيها الحكم والأمثال وأسماء الأدباء والشعراء العرب القدماء من ذلك قوله :

---

[١] قس بن ساعدة الأيادي ، أحد حكماء العرب في الجاهلية ، ومن كبار خطبائهم ، كان أسقف نجران، أنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٥ ، ص ١٩٦

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٣٠

[٣] هو قس بن ساعدة بن حذاقة بن زهير بن إياد بن نزار ، الأيادي ، وكان من حكماء العرب ، وأعْقَلَ من سُمِعَ به منهم ، وهو أول من كتب (من فلان إلى فلان) ، وأول من قال (أما بعد) ، وأول من قال (البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر) وقد عُمِّرَ مائةً وثمانين سنة ، أنظر ، الميداني - مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ١١١

[٤] الميداني - مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٢٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«لا مخبأ لعطْر بعد عروس ، أنت أعوم في بحور الشعر من ابن قادوس[١] ، وأصلح إذا حدثت من صالح بن عبدالقدوس[٢] ، وأشهى إذا هزلت من ابن حجاج في النفوس»[٣].

وواضح إشارته إلى ابن قادوس ، وصالح بن عبدالقدوس ، إلى جانب ذلك فإن الكاتب قد ضمن المثل العربي القديم ، الذي من أجله تزداد العبارات روعة ، وجمالا، هو : «لا عِطر بعد عروس»[٤] .

وفي الرسالة ذاتها ما نصه : «وغدا كل حي مُتَيَّمًا من زيادته لا كما قال المعري[٥](حيا من بني مطر) »، وفي هذا النص إشارة إلى الشاعر العباسي أبي العلاء المعري وقوله «حيا من بني مطر» ، وقوله في رسالته متحدثا عن هجوم النيل على أراضي مصر:

---

(١) ابن قادوس هو محمود بن إسماعيل بن حميد الدمياطي ، منشئ من الشعراء ، كان كاتب الإنشاء بمصر ، توفي سنة ٥٥٣هـ ، أنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٧ ، ص ١٦٦

(٢) أبو الفضل صالح بن عبدالقدوس البصري ، مولى الأزد ، أحد الشعراء ، اتهمه المهدي بالزندقة ، فأمر بحمله ، فأحضر ، فلما خاطبه أعجب بغزارة أدبه ، وعلمه وبراعته ، وحسن بيانه ، وكثرة حكمته ، فأمر بتخلية سبيله ، فلما ولّى رده وقال : ألست القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه ؟

فأمر بقتله ، أنظر ، ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٢ ، ص ٤٩٣

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٠٦

(٤) ويروى (لا عِطْرَ بعد عروس) ، أول من قال ذلك امرأة من عذرة ، يقال لها أسماء بنت عبدالله ، وكان لها زوج من بني عمها يقال له عروس ، فمات عنها ، فتزوجها رجل من غير قومها يقال له نوفل ، وكان أعسر ، أبخر ، بخيلا ، دميما ، فلما أراد أن يظعن بها قالت له : «لو أذنت لي فرثيت ابن عمي ، وبكيت عند رمسه» ، أنظر ، الميداني - مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٢١١

(٥) أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان العري (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ)، المعروف بأبي العلاء ، شاعر ، حكيم ، أديب ، لغوي ، نحوي ، ولد بالشام وتوفي بها ، أنظر الذهبي - سير النبلاء ، ج ١١ ، ص ١٥٤ ، وأنظر عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ١ ، ص ٢٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار لبكى بعيني عروة»[١] ، حيث يرد اسم الشاعر عروة بن حزام ، الذي اشتهر بغزله وبكائه على ديار الحبيبة .

وفي رسالة السكين ، قال ابن حجة الحموي :« وإن هَجَعَتْ بِجَفْنِها كانت أمضَى من الطَيْف ، وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف »[٢] . ونلاحظ أن الكاتب قد أدخل المثل العربي في رسالته « أمضَى من الطَيْفِ »[٣] .

وفي رسالة تقريظ كتبها ابن حجة الحموي ، عام ٨١٨ هـ الذي صنف فيها تاريخ الملك المؤيد سيرة مشتملة على نظم ونثر، فكتب ابن حجة في تقريظه يقول: «فلو نظر الصفدي[٤] إلى هذا التاريخ وراجع النظر لسلخ جلده أو تصفحه الكتبي[٥] لعدد على تأخيره ، وما عده أو كاثر ابن كثير[٦] لرأى نقصه متزايدا عنده أو عاصر ابن خلكان[٧] لقال لم أمازج شراب الفقاعي بخلي فإن عنده حمضة وبردة أو لحه

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٦٨

[٢] رزق سليم - تقي الدين ابن حجة الحموي ، ص ١٠٠

[٣] الميداني - مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧

[٤] خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي (٦٩٦هـ - ٧٦٤هـ) ، الشافعي ، مؤرخ ، أديب ، ناثر ، ناظم ، لغوي ، ولد بصفد وتوفي بدمشق ، أنظر حاجي خليفة - كشف الظنون ، ص ٣١ ، ٤٨ ، ١٢٨ ، ٣٨٨ ، ٤٨٨ ، وأنظر عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ٤ ، ص ١١٤

[٥] محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن الكتبي (٦٨١هـ - ٧٦٤هـ) ، الداراني الأصل ، الدمشقي ، الشافعي ، مؤرخ ، أديب ، وتوفي بدمشق ، أنظر حاجي خليفة - كشف الظنون ، ص ٩٢٣ ، ١١٨٥ ، ١٢٩٢ ، ٢٠١٩ ، وأنظر عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ١٠ ، ص ٦١

[٦] إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع (٧٠٠ هـ - ٧٧٤هـ) ، البصري ، ثم الدمشقي، الشافعي ، المعروف بابن كثير ، محدث ، مؤرخ ، مفسر ، فقيه ، ولد بالبصرة ثم انتقل إلى دمشق ، نشأ بها وتوفي بها ، أنظر عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ٢ ، ص ٢٨٣

[٧] أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨هـ - ٦٨١هـ) ، الشافعي ، فقيه ، مؤرخ ، أديب ،=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذهبي[١]، وموه بتاريخه لقيل له هذا ما ينطلي معه»[٢]، حيث أورد ابن حجة في تقريظه هذا عددا من أسماء الأدباء المشهورين وهم الصفدي، والكتبي، وابن كثير، وابن خلكان، والذهبي.

وكان إلى جانب ذلك نوع آخر من الرسائل المتأثرة بالتراث السالف تأتي على سبيل المعارضة لما كتبه الأولون، من ذلك الرسالة التي كتبها ابن حجة الحموي إذ طلب إليه أن يكتب رسالة على غرار ما كتبه كل من الشهاب محمود الحلبي والشيخ جمال الدين بن نباتة المصري، والشهاب فضل الله العمري في وصف الخيل، فكتب الحموي رسالة عارضهم فيها، وكان كل من الكتاب الأربعة قد وصف على الترتيب الأدهم فالأشقر فالكميت فالحبشي فالأخضر فالأبلق، ثم انفرد كل من ابن فضل الله وابن حجة في وصف الورد والكدش.

وربما اتخذت البشارات سبيلا للمعارضة من ذلك ما حكاه تقي الدين بن حجة الحموي في كتابه خزانة الأدب عندما شرع بكتابة بشارة بوفاء النيل إذ قال: «رسم لي في الأيام الشريفة المؤيدية سنة تسع عشرة وثمانمائة أن أنشئ رسالة بوفاء النيل المبارك، ولم أسبق إليها، ولا حام طائر فكر عليها، وأحضر مولانا المعز الأشرف القاضوي الناصر محمد بن البارزي الجهني الشافعي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية قطعة من إنشاء القاضي الفاضل بوفاء النيل، وقرئت على المسامع المؤيدية، وحُذِّرْتُ من التعرض إلى شيء من ألفاظها ومعانيها،

=شاعر، ولد بإربل، وتولى قضاء دمشق وتوفي بها، أنظر ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٢٥٣، وأنظر عمر رضا - معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٥٩ - ٦٠.

[١] الذهبي هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان، عاش بين سنة ٦٧٣ - ٧٤٨هـ، أنظر مقدمة الاعلام بوفيات الأعلام، ج ١، ص ١ - ٣

[٢] ابن حجة - خزانة الأدب، ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأنشأت رسالة حكم لذي بكر بها على كل فاضل بالتقديم ، وإن كان لسان القلم قد طال ، فأنا أقطعه هنا تأدبا مع عبد الرحيم»[١].

ويتضح لنا من هذا النص ومن قول ابن حجة (حذرت من التعرض إلى شيء من ألفاظها ومعانيها) ، أن كتاب هذا العصر كانوا يتأثرون ويأخذون الكثير من الألفاظ والمعاني من الكتاب الذين سبقوهم بالكتابة في هذا الشأن ، ولنا أن نقف عند نوع من الكتابة الأدبية يدعى الموازنات .

فالموازنة أو المفاخرة ظاهرة أدبية ترجع في وجودها إلى العصر الجاهلي حيث كان يتلاحى خطيبان ويتساب ندان يتفاخران ويتهاجيان ويذكران كرم الأصل والنجار والشجاعة والمغامرة والكرم وما إلى ذلك من الصفات الحميدة .

إن هذه المفاخرات قد تطورت في العصر العباسي ، ولعل الجاحظ أسبق الأدباء إلى الكتابة فيها ، فقد ورد في ثبت مؤلفاته أن له رسالتين ، إحداهما في الموازنة والمفاخرة بين الربيع والخريف تسمى (سلوة الخريف) ، والثانية في المفاخرة بين المسك والرماد ، وكذلك كتب الجاحظ جدلا بين صاحب الكلب وصاحب الديك في كتابه الحيوان ، واقتدى به بعضهم مثل أبي العلاء المعري وغيره .

ومن ثم شرق هذا الغرض من جديد وأشرق ، بعد ما غرب واغترب فيهم شطر مصر والشام في زمان المماليك فأدلى كتابهما بدلوهم وأبدعوا في هذا المجال. وقد ساروا على نهج من سبقهم من الأدباء في العصور السابقة وتأثروا بتراثهم في هذا الشأن فكتبوا عددا من الموازنات والمفاخرات وغيرها .

---

[١] عبدالرحيم هو القاضي الفاضل ، أنظر ، ابن حجة - خزانة الأدب ، ص٤٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصَنعة :

إن من أهم ما يميز الرسائل الفنية في هذا العصر هو بروز البديع فيها بشكل لافت للنظر ، و من العوامل التي أدت إلى شيوع البديع في كتابات هذا العصر ، نضج العلوم البلاغية في عصر الأيوبيين والمماليك ، وبخاصة البديع ، كما ألفوا في بعض ألوان البديع والمحسنات مثل : جنان الجناس للصفدي ، وفض الختام في التورية ، والحالي والعاطل للحلي ، وكشف اللثام عن التورية والاستخدام لابن حجة ، وخزانة الأدب [١] ، كما كانت العاطفة عاملا مهما في نشر البديع لأن الكتاب حاولوا إبرازها « من خلال هذه الرسائل ، إلا أن التصنع والتكلف كانا يحجبانها عنا قليلا ، فيحاول الكاتب من خلال هذا الجهد الفني ، الذي كان يبذله أن يصعدها »[٢].

وذهب محمد كامل الفقي إلى أن إهتمام الكتّاب في هذا العصر بالبديع يعد نوعا من اللُوْثة[٣] ، إذ يقول :« ولا أرد هذه اللُوثة إلى مجرد الفتون بالبديع ، بل هي ترد كذلك إلى ضعف الملكات ، وتخاذل السلائق حتى حاول الكتاب -والشعراء- أن يسدوا نقصهم بهذه الحلي المكتَسَبَة ، وما كسبوا منها شيئا ، بل كانوا بالافراط فيها أشد خسرا »[٤] ، إلا أن هذا الرأي رفضه معظم الأدباء ، لأنهم رأوا أن انتشار البديع وخاصة السجع لدى الكتاب جلي في العصور السابقة ، وخصوصا في العصر العباسي ، بينما كان الأدباء والكتاب في ذلك العصر يتمتعون بالفصاحة والبيان:

---

[١] عبدالجليل - بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ٢٩٥

[٢] باشا - الأدب في بلاد الشام ، ص ٧٥١ - ٧٨٨

[٣] اللوثة يعني الحمق ، أنظر الفقي - الأدب العربي في العصر المملوكي ، ص ١٢١

[٤] محمد زغلول - الأدب في العصر المملوكي ، ص ١٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«إن صناعة السجع وصلت في العصر العباسي إلى حد عظيم من التأنق ، وأصبحت في ذلك العصر ، وفي العصور التي تلته ، الزيَّ الإنشائيّ العام ، وأصبحت المقياسَ الأعلى في حلقات الأدب »[١].

- السجع :

هو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهذا هو معنى قول السكاكي «السجع في النثر كالقافية في الشعر» ، وهو في كتب البلاغة « تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد »[٢] ، وكان مقياسا لجودة الكتابة في هذا العصر ، ويرى بعض الكتاب ضرورة التزام السجع في خطب رسائل التولية والتعيين[٣] ، وتكون غالبا مبنية على سجعة واحدة . من ذلك ما أنشأه القلقشندي من توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية ، ومما جاء فيه :

«الحمد لله الذي زيَّن معالمَ المدارس من أعلام العلماء بجمالها ، وميَّز مراتبَ الكلمة بإجراء سوابق الأفكار في ميادين الدروس وفسيح مجالها ، وعمّر معاهد العلم بأجل عالم إذا ذكرت وقائع المناظرة كان رأس فرسانها ورَئِيسَ رجالها »[٤] ، ويقول كذلك في توقيع بالتدريس بقبة الصالح : «الحمد لله الذي جعل للعلم جمالا تتهافت على دركه محاسر الفضائل ، وتتوارد على ثبوت محامده المتواردة قواطع

---

(١) أنيس المقدسي - تطور الأساليب النثرية ، ص ٢١٦ - ٢١٦

(٢) ابن الأثير - المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، وأنظر القزويني - التلخيص ، ص ٣٩٧ ، وأنظر رزق سليم - تقي الدين ابن حجة الحموي ، ص ٥٤

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٨٦

(٤) المصدر نفسه ، ج ١١، ص ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدلائل »[١].

ونرى ذلك جليا في إجازة للعلامة سراج الدين بن الملقن :« الحمد لله الذي رفع للعلماء مقدارا ، وأجزل نِعَمَه عليهم إذ أعْلى لهم منارا، ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيرادا وإصدارا ، أشرعت هِمَمُهم العلية في حلْبَة السباق فهي لا تُجارَى ، وتَحَلَّو بالمفاخر جهرا ، وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسرارا ، أبرز بهم في هالات المفاخر أقمارا ، وأزال بضياء علومهم رَيْبَ الشّكّ حتى عاد ليلُ الجَهَالة نهارا جعلهم لدِينه أنصارا ، وصيّرهم نُخبةَ أصفيائِه إذ أودعهم من المعارف أسرارا ، واختَصَّهم بكونهم ورثةَ أنبيائه ، وناهيك بها فَخَارا »[٢].

ومن الملاحظ أن منشئ هذه الرسالة عمد إلى إيراد سجعة واحدة كانت على حرف الراء منصوبة :(مقدارا ، منارا ، إصدارا ، جهرا ، أسرارا ، أقمارا ، نهارا ، أنصارا ، فخارا).

ومعظم ألوان السجع نجدها في رسائل هذا العصر ما تكون من فقرتين متفقتين في رويٍّ واحد ، يتلوهما فقرتان تتفقان في غيره ، دون مراعاة لعدد الألفاظ أو أوزانها ، ويسمى بالترصيع[٣] ، ومن ذلك ما كتبه ابن حجة الحموي من رسالة في وصف السكين ، يقول فيها :

« يقبِّل الأرضَ التي قامتْ حدود مكارمها ، وقطعتْ عنها مكروه الفقر بسنون عزائمها ، وينهي وصول السكين التي قطع المملوك بها أوصال الجفاء ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء ، زرقاء كم ظهر للبيض منها ألوان - خرساء ومن العجائب أنها لسان كل متوان - ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب الصاب ،

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٣٨

[٢] المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٦٥

[٣] المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذل بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب ، كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط ، وعلى الحقيقة ما رؤي منها قط ، وكم وجد بها الصاحب في المضايق نفعا ، وحكم بحسن صحبتها قطعا ، ماضية العزم قاطعة السن فيها حدة الشباب من وجهين ، لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين ، وانملة صبح قمعت بسواد الدجى ، فعوذتها بالضحى والليل إذا سجى ، ولسان برق امتد في ظلمات الليل ، فتنكرت أشعة الأنجم وما عرف منها سهيل ، هذا وتقطيعها موزون إذا لم يتجاوز في عروض ضربها الحد ، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد ، من أجل ذا تدخل، في مضايق ليس للسيف فيها قط مدخل ، وكل ما تفعله توجزه والرمح في تعقيده مطول ، إن هجعت كانت أمضي من الطيف ، وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف ، تنسي حلاوة العسال فلا يظهر لطوله لمائل، وتغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل ، إن مرت بشكلها المحلي تركت المعادن عاطلة ، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادلة ، شهد الرمح بعدالته أنها أقرب منه إلي الصواب . وحكم لها بصحة ذلك قبل أن يكتمل النصاب، ما طال في رأس القلم شعرة إلا سرحتها بإحسان . ولا طالعت كتابا إلا أزالت غلطه بالكشط من رأس اللسان ، تعقد عليها الخناصر لأنها عدة وعدة، وتالله ما وقعت في قبضته إلا أمالت لسانها وتكلمت بحدة »[1].

ويبدو أن الكاتب تعمد في إكثار الكلمات المسجوعة ، التي تكون من فقرتين متفقتين في رويٍّ واحد ، فجاءت كل الجمل على هذه الشاكلة من مثل (مكارمها ، عزائمها) ، (جفاء ، شفاء) ، (متوان ، ألوان) ، (الصاب ، الرقاب) ، (خط ، قط) ، (نفعا ، قطعا) ، (وجهين ، طرفين) ، (الدجى، سجى) ، (الليل ، سهيل) ، (الحد ، المد) ، (مدخل ، مطول) ، (الطيف ، السيف)، (طائل ، داخل) ، (عاطلة ، مجادلة) ، (صواب ، نصاب) ، (إحسان ، اللسان) ، (عدة ، حدة) .

---

[1] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الطباق :

وكان الطباق من فنون البديع التي شاع استعمالها في هذا العصر إلى جانب السجع ، وهو في اصطلاح رجال البديع : الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في كلام أو بيت شعر ، كالجمع بين اسمين متضادين مثل : السواد والبياض، اللين والشدة ، وكالجمع بين فعلين متضادين مثل : يحيي و يميت ، يشفي ويمرض، وقد تكون الطباق بين نوعين مختلفين كقوله تعالى :{أومن كان ميتا فأحييناه}، فإن أحد المتضادين اسم وهو ميتا ، والآخر فعل وهو أحييناه[١] .

مما جاء في رسالة كتبها بدر الدين بن الصاحب إلى فخر الدين بن مكناس، وصف فيها الخمر وأدواتها :

« ليلها من حسنها نهارا ، وضوء وجهها ليد لامسها سوارا عجوزة الاسم صبية الاستمتاع ، أديمها كلما يعتق يغلو ، وردها كلما مر يحلو » .

ومما يطالعنا في هذا المجال ما كتبه السيوطي ، وبث فيه أنواعا من البديع منها الطباق بقوله :

« مناهله صافية ، وموارده كافية ، ومصادره وافية ، لا تجمع واردة إلا وهي فيه مسموعة ، ولا تسمع شاردة إلا وتراها في ديوانه مجموعة ، قربت فيه ما كان بعيدا . وآنست ما كان فريدا ، وأهلت ما كان شريدا » .

---

[١] أنظر ابن سنان - سر الفصاحة ، ص ٢٣٤ ، وأنظر الحلبي - حسن التوسل ، ص ١٩٩ ، وأنظر ابن الأثير - المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، وأنظر العسكري - الصناعتين ، ج ٧ ، ص ٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ من النص السابق أن السيوطي طابق بين (موارد - مصادر) ، (واردة - شاردة) ، (قربت - بعيدا) ، (أنست - فريدا) ، (أهلت - شريدا) .

- الجناس

كذلك شاع الجناس وهو من فنون البديع شيوعا فائقا في هذا العصر ، إذ لجأ إليه الكتاب في ذلك العصر لأنه «كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الألفاظ البالية»[١] .

والجناس من فنون البديع اللفظية ، وهو تشابه الكلمتين في اللفظ[٢] ، وأما الجناس الذي عمد إليه كتاب هذا العصر فقد يكون متكلفا «وقد كثر منه هؤلاء الساقة المتعقبّون له في نظمهم ونثرهم حتى بردّ ورَكٌ»[٣] ، إلا ما جاء بغير تكلف فإنه يزيد الكلام من جمال ورونق ، من ذلك ما كتبه السيوطي في رسالة وصف فيها آل النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقد لجأ إلى الجناس الناقص في كتابته ، وهو اختلاف حرف في الكلمتين ، أو زيادة حرف في إحداهما عن الأخرى[٤] يقول :

«نجوم الهدى ، وليوث العدى ، وغيوث الندى ، ما صاح حاد وشدا ، وراح شاد وغدا ، وصاب غاد وهدى ، وغاب صاد وبدا ، وصال باد وودى ، وسال واد وجدى» .

---

[١] ابن الأثير - المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٤٢

[٢] القزويني - التلخيص ، ص ٣٨٨

[٣] ابن رشيق - العمدة ، ج ١ ، ص ٢٥٣

[٤] ابن الأثير - جوهر الكنز ، ص ٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالكلمات المتجانسة في هذا النص هي : (هدى ، عدى ، ندى ، شدا) ، (صاح ، راح) ، (شاد ، غاد ، صاد ، باد ، واد) ، (صاب ، غاب) .

ومن النماذج الأخرى قول بدر الدين بن الصاحب في وصف الخمرة :

«وضيق الوقت في مباينتها وتطليقها ، لا تنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان»[١] ، فالكلمتان المتجانستان في النص السابق هما : (ساحتها ، راحتها) .

وعلى ذلك كتب ابن حجة الحموي إلى المقر المخدومي فخر الدين بن مكانس في رسالة ذكر فيها حريق دمشق ، يقول فيها : «وأضحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة ، ولقد كان أهلها في ظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، بعد ذلك ثغر روضها الباسم ، وضاع من غير تورية عطره الناسم»[٢].

نلاحظ كيف أن الجناس ورد بعد جمل طويلة ، إذ جاءت كلمات (كثيرة ، عسيرة) و (الباسم ، الناسم).

أما الجناس التام ، فهو ما اتفق فيه اللفظان في أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات ، وترتيبها[٣] ، ومن أمثلته ، ما أنشأه ابن حجة الحموي عن السلطان الملك المؤيد جوابا عن مكاتبة الملك الناصر صاحب اليمن،

---

(١) ابن حجة - تأهيل الغريب ، ورقة ٧٥ ، وأنظر رزق سليم - عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٤ - ١٧٥

(٢) ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٣٦

(٣) القزويني - التلخيص ، ص ٣٨٨ ، وأنظر عبدالعزيز عتيق - علم المعاني ، البيان ، البديع ، ص٦١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما جاء في هذه الرسالة : « لا زال جناس مجده سعيد الحركة بين اليمن واليمن ، وسيفه اليماني لم يرض بمجانسة سيف بن ذي يزن ، والأمة تهنأ بجنات عدن في عدن »[١].

فنلاحظ كيف أنه أورد لفظة (اليمن) مرتين ، الأولى بمعنى اليُمن أو الرخاء والبركة ، والثانية إشارة إلى البلد المعروف باسم اليمن ، كما وردت لفظة (عدن) مرتين ، الأولى بمعنى الجنة ، والثانية إشارة إلى بلدة عدن .

- لزوم ما لا يلزم :

وإلى جانب السجع والطباق والجناس ، مال بعض كتاب هذا العصر إلى نوع آخر يمكن عده من ألوان البديع وهو لزوم ما لا يلزم ، وهو « أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع »[٢] ، وهو « عند المتقدمين يأتي عفو الخاطر ، غير مقصود ولا متعمد ، ولذلك لا يرى عليه من أثر الكلفة أو الصنعة شيء ، وأما المتأخرون فتوسعوا فيه وأكثروا منه ، ومنهم من تعمده، وقصد إليه قصدا ، كأنما يريد أن يدل بذلك على مقدرته في النظم وسعة إحاطته باللغة ومفرداتها »[٣].

من ذلك ما كتبه ابن حجة الحموي تقريظا مهمل الحرف ، على رسالة مشتملة على حكم ومواعظ ، بعد أن أمره صديقه الناصري محمد بن البارزي بأن يكتب ، قال فيه :

---

[١] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٣٦

[٢] القزويني - الإيضاح ، ص ١٧٥

[٣] القزويني - التلخيص ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧ ، وأنظر عبدالعزيز عتيق - علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٦٥٠ - ٦٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«طالع المملوكُ رسالةَ محمد وسلم ، وأحكمَ السمعَ والطاعةَ لكلامها المحكم ، والله ما سمعها عالمٌ إلا وهامَ ، ولا ردع سحرها الحلال مسلما إلا كره الحرم ، وعاد عاملا وأعد للصلاح حواصله ، وصار له مع الله معاملة ، ما أحلى ما كرر عاطلها المحلى ، وأهلا لسهولة مسلكها وسهلا ، ما لولد ساعة سعد أحكامها ، ولا أهل العصر سكر إلا ما أدار كأس مُدامها ، ولا لعمارة عامر صرحها ورهطه ، ولا نصر در كلؤلؤها وسمطه... »[١] .

نلاحظ في الرسالة السابقة ، أن الفاصلة فيها ليست بلازمة في السجع ، مثل : سلم ، المحكم ، وهام ، الحرم ، حواصله ، معاملة وغيرها ، فضلا عن ذلك فقد عمد الكاتب إلى إنشاء رسالة تخلو من حرف منقوط سوى التاء المربوطة .

٣

الصورة الأدبية

إلي جانب عناية كتاب هذا العصر بالصنعة واهتمامهم بالبديع من سجع وجناس وطباق وغيرها ، فقد اهتموا أيضا بالتشبيه والاستعارة ، وهذه بمجموعها تشكل الصورة الأدبية مع ما يتمتع به كاتب الرسالة من خيال ومقدرة على تكوين تلك الصور ورسمها .

ولنا أن نقف على هذه الصور الأدبية التي رسمها ابن حجة الحموي في تصوير وفاء النيل إذ نلمس بجلاء تلك المقدرة على استخدام الاستعارة فيقول : «وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت باعطاف غصونها إليه »[٢] ، حيث

---

[١] ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٤٤ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استعار في رسم هذه الصور أفعال التقبيل والرشف والميل التي هي من صفات الإنسان ومنحها للنيل وكيف جعل للمناطق المجاورة لمجراه ثغورا أقدم على تقبيلها وعلى إرشافها من ريقه العذب .

وتحتشد في هذا النص صُوَرٌ شتّى منها قوله : « فأرضع جنين النبت وأحيا لها أمهات العصف والأب ، وصافحته كفوف اللوز ، فختمها بخواتيمه العقيقية »[١].

فقد جعل النيل مُرضِعا لأجنّة النبت وجعل لهذا النبت أمهات وآباء ، أما حقول اللوز فقد جعل لها أيدي وكفوفا تصافح بها ما جرى في وديانها من مياه .

ولنقف على صورة بليغة أخرى يقول فيها :« واستوفت الأشجار ما كان لها في ذمة الري من الديوان »[٢] .

فقد جعل للأشجار الظامئة المحتاجة إلى الماء ديوانا في ذمة النهر ، وقد آن أوان استيفائها بهذه الزيادة ، لذا نالت الأشجار حصتها من الماء وأينعت .

وفي رسالة استدعاء لمجلس شراب يتفنن منشئ الرسالة في إيراد صور شتى فيها الخمرة منها هاتان الصورتان :«كأن على خدها فوق وردة ياسمينة» ، و«حمراء تخلع ثوبها على الندمان » ، إذ جعل للخمرة ثوبا تخلعه على الندمان ، وهذه صورة جميلة استعار فيها الخلع والثياب وجعلها من صفات الخمرة .

أما الاستدعاء الذي كتبه ابن حجة من باب تمرين القريحة فتحتشد فيه الصُوَرُ البليغة إذ أودع هذه الرسائل جُلَّ ما يملك من مقدرة على الإنشاء والتصوير، فقد وصف فيه انتظار المجلس لقدوم المستدعى فقال :«المماليك بروض جرتْ دُموعُ

---

[١] ابن حجة – خزانة الأدب ، ص ٤٣٢

[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطَلّ من أحداق حدائقه لفقدك »[١] ، ورسم في هذا أكثر من صورة ، حيث جعل للطل دموعا ، وللحدائق أحداقا ، ترنو لمقدّم هذا الزائر الذي لا يكتمل المجلس إلا بحضوره.

ونقف عند صورة أشد وقعا في النفس إذ يقول : «وعاد تصفيق الموج لطما على وَجَنات الأنهار » ، فقد جعل للموج أيدي اعتاد على التصفيق بها ، ولكن لفقدان المستدعى تحول هذا التصفيق إلى لطم لخدود ، وأي خدود ؟ خدود الأنهار ، وهكذا نراه قد استعار التصفيق واللطم اللذين هما من صفات الإنسان ، وجعلهما للموج وفي الوقت نفسه منح الوجنات التي هي من خصائص الإنسان للأنهار ، وتستهويه هذه الصورة فيعود إلى إيرادها بشكل آخر فيقول :« فقد جرى من دموع الغمام على وجنات الورد ما كفى» ، ومعلوم أن معظم هذه الصور غير مبتكرة إذ طالما وردت في قصائد الغزل العباسية وفي رسائل العديد من الكتاب ، ومنها هذه الصورة «ولم يجمع الورد فمه لتقبيل إذ صار عنده لغيبتك تحقيق »[٢] .

ومن بديع الصور التي تأتي في هذه الرسالة قوله :« وكادتْ الورق أن تمزق من حنينها إليك الأطواق » و «عيون الأزهار قد اختلجت بنسمات قربك وطلقت الوسن »، فقد جعل للأزهار عيونا لا تعرف الوسن أو الرقاد ، كما جعل للنسيم ألسنة ناطقة وللأزهار ثغورا تلهج بالدعاء بقوله : «وقد تحركت ألسنة النسيم في ثُغور الأزهار بأدعية مستجابة » ، وجعل للأغصان رؤوسا وكفوف إذ قال :« ورفعت الغصون رؤوسها إلى السماء وفتحت كفوف أوراقها للإجابة »[٣] ، وهذه صورة غاية في الروعة حيث الأغصان تتطلع وأوراقها قد شرعت مثل أكف حين حضر

---

[١] ابن حجة – تأهيل الغريب ، ورقة : ٧٥ ، وأنظر رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص١٧٥ – ١٧٦

[٢] انظر رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٥ – ١٧٦

[٣] ابن حجة – تأهيل الغريب ، ورقة : ٧٥ ، وأنظر رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٥ – ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المستدعى لحضور ذلك المجلس العامر بأنواع الشراب .

ونقف في رسالة الكاتب فخر الدين بن مكانس على صور بلاغية فنية عديدة حيث وصف فيضان النيل وتطرق للحديث عن التيار والموج العاصف الذي غطى كل شيء فقال : «وغدا التيار ينساب في كل يم كالأيم» وقوله :«وأصبحت هضاب اللوح في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم » ، فقد وفق منشئ الرسالة في اعطاء صورة واضحة عن ما أحدثه النيل في زيادته تلك .

ويواصل رسم تلك الصور البليغة فيصور النيل بإنسان له عينان وقد اشتد غضبه على الناس فاحمرت عيناه «واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر » ، ويصف هجومه على الأراضي والدور المحيطة به فيقول : «هجم على مصر فجاس خلال الديار »، حيث استعار الأفعال (هجم) و(جاس) وهما من صفات الإنسان وجعلها للنيل ليرسم مقدار ما أحدثه من ضرر وما ولده من رعب في قلوب الناس .

كما رسم صورة للبساتين المحيطة بالنيل ومنها بساتين النرجس التي جعل لها عيونا قد ابيضت من شدة الحزن على الدمار الذي حدث بسبب زيادة مياه النيل فقال: «ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ، ويستمر في رسم ما حل بالنرجس فيقول : «وفارق أحبابه من الرياحين ولم يبق له غير القلانس من صديق »[١] .

ومما تقدم يتضح لنا أن معظم الصور التي حفلت بها الرسائل الفنية جاءت معظمها صورا بيانية معتمدة التشبيهات والاستعارات والكنايات.

كما حاول عدد من الكتّاب الميل إلى التجديد في رسائلهم وابتداع صور جديدة، وكان هذا النوع من الصور نادرا ، فقد كانت أمامهم مادة غزيرة من التراث

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأدبي اطلعوا عليها عن كثب وتأثروا بها وساروا على هديها.

ومن تلك الصور قول ابن حجة الحموي :«ودَقَّ قَفا السودان فالراية البيضاء من كل قِلْع عليه »[١] ، فقد جعل للسودان قفا وجعل للأرض رايات بيضاء ظهرت من جراء فيضان النيل .

ومن صور التشبيه أيضا « كأن ثَغرَ الكأس قد ابتسم على شَنَب ، فصار الشنب دموعا على وجنة حمرا » ، ففضلا عن التشبيه نلمس كيف أن الكاتب قد جعل للكأس ثغرا وابتسامة ، ومن المعلوم أن الثغر والإبتسام من صفات الإنسان ، إلا أنه استعارها للكأس ليدلل على مقدار ما أحدثه قدوم المستدعى إلى مجلس الشراب .

وفضلا عن ذلك هناك صور أدبية أخرى منها « فلا تَدعْ ثغُورَ الأقاح تعض على أصابع المنثور أسفا »[٢] ، فقد جعل للأقاح ثغورا واستعار العض الذي هو من صفات الإنسان والحيوان للورود ، وجعل كذلك للمنثور أصابع ، ونقل الأسف الذي هو من عادات الإنسان إلى الجماد فجعله أسفا.

ومن جميل تلك الصور قوله في وصف الورد :«واعتراه من برد النسيم رعدة فلم يخرج يده عن أكمامه»، فلقد منع برد النسيم الذي لامس تلك الورود من أن تخرج يدها من أكمامها فظلت براعم الورد تشكو رعدة البرد فلم تتفتح ، أما دُولاب الماء فقد غدت له مدامع جارية ودورانه ظل باستمرار يستمع الأخبار ، لذلك فهو «والدولاب دموعه جارية وهو دائر على تسمع أخبارك» ، وأما جدول الماء فقد أصبح له فم وغدا حاله حال الإنسان المشتاق يغص بريقة «فقد صار فم الجدول بماء

---

[١] ابن حجة – خزانة الأدب ، ص ٤٣٢

[٢] ابن حجة – تأهيل الغريب ، ورقة : ٧٥ ، وأنظر رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٥ – ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ريقه مغصصا وها هو قد مد مِعْصَمه يضرب على قدومك بالحصا »[١] ، فالدولاب أصبحت له أيضا يد يضرب فيها على الحصا ، وهذه صورة جميلة تساقط قطرات الماء من الدولاب وكأنها نوع من الضرب الشديد ، وهي صورة مستمدة من الطبيعة التي اجتهد الكتاب في الإفادة منها في رسم صورهم الأدبية .

ومن الصور الأخرى ما نلمسه في رسالة مدح كتبها فخر الدين بن مكانس ، فقد قال فيها :« ويظل تحت جناح أدبه القائل » ، ولا يخفى أن هذه الصورة مأخوذة من القرآن الكريم ومن قوله تعالى { واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} ، فقد جعل ابن مكانس للأدب جناحا يستظل به القائل .

وينقل لنا كذلك الكاتب فخر الدين بن مكناس صورة يصف فيها السفن التي كانت تَمْخُرُ عُبَابَ النيل وقد نال منها الفيضان مأخذه ، فيصور الأمواج التي اعتلتها ، وكأن ارتفاعها قد لامس السماء فيقول :« وكل سفينة وقد علت على وجه الماء وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء وقد قالت لها أترابها عند الفراق ألا ترجعي »[٢] ، وهي صورة واقعية مأخوذة من الواقع الذي كان يحياه الكاتب .

---

[١] رزق سليم – عصر سلاطين المماليك ، ج ٥ ، ص ١٧٥ – ١٧٦

[٢] القلقشندي – صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

أبرز الكتّاب في العصر المملوكي الثاني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو العباس القلقشندي

١

اسمه ولقبه

هو القاضي أبو العباس [١] شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله ، الفزاري القلقشندي[٢] ، ولد سنة ٧٥٦هـ في قرية تدعى (قلقشندة) وإليها نسب[٣] ، أما أصله فعربي صميم فهو من بني فزارة بن بن ذبيان من قيس عيلان ، وقد أشار إلى ذلك بنص صريح ورد في كتابه (صبح الأعشى) ، جاء فيه :

«ومن فزارة بنو مازن وبنو بدر ، فأما بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ، وأما بنو بدر فهم بنو بدر بن عدي بن فزارة ، قال : وفيهم كانت رياسة بني فزارة في الجاهلية يرأسون جميع غطفان وتدين لهم قيس وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدي، ومنهم كان حذيفة بن بدر صاحب الفرس المعروفة بالغبراء ومن بني بدر هؤلاء وبني عمهم بني مازن جماعة بالقليوبية من الديار المصرية ، قلت : وبنو بدر هم قبيلتنا التي إليها نعتزي وفيها ننتسب وأهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بني بدر

---

[١] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٨ ، وأنظر ابن العماد - شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٤٩ ، وأنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٦ ، ص ١٧٢ ، وأنظر قلقيلة - النقد الأدبي في العصر المملوكي ، ص١٤٤

[٢] الزركلي - الأعلام ، ج ١ ، ص ١٧٧

[٣] ابن العماد - شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونصفهم من بني مازن »،[١] وكانت وفاته يوم السبت في العاشر من جمادي الآخرة ، سنة ٨٢١هـ عن ٦٥ سنة حافلة بالتأليف والتصنيف[٢].

٢

حياته وثقافته

بدأ القلقشندي مسيرته في مسالك الأدب والمعرفة بتعلم القرآن الكريم في (قلقشندة) مسقط رأسه ، وغادرها في مقتبل عمره قاصدا الإسكندرية رغبة في الاستزادة من بحور العلم والتفقه في الدين .

وقد سنحت له الأيام لينهل من علم أكابر شيوخ العصر حتى نال حظا وافرا ، أهلّه للتخصص في الأدب والفقه الشافعي ، وقد لفتت براعته في الكتابة والإنشاء أنظار رجال البلاط ومهدت له سبيلا لنيل المنصب الذي أهلته له مواهبه الأدبية وهو العمل في ديوان الإنشاء ، وقد كان للمقر الفتحي بن فضل الله العمري فضل كبير على القلقشندي في ذلك ، التحق القلقشندي بخدمة هذا الديوان سنة ٧٩١ هـ في عهد السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ)[٣] وقد كانت لهذا الديوان أهمية خاصة في ذلك العصر ، وكان على المرشح لنيل هذه الوظيفة المهمة أن يكون بارعا بالبلاغة وملما بشؤون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية والعلاقات بين مصر وباقي الأمم .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ،ج ١ ، ص ٣٤٥

[٢] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٥

[٣] ابن العماد - شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك فإن المراحل التي مر بها القلقشندي في حياته الثقافية ، تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، المرحلة الأولى هي مرحلة التعلم والأخذ عن مشاهير علماء عصره ، والمرحلة الثانية التي تمتد من عام ٧٨١ - ٧٩٠ هـ ، التي عكف فيها القلقشندي على التأليف والتصنيف في الفقه وغيره ، منها شرحه لكتاب (جامع المختصرات في فروع الشافعية) ، وكذلك قيامه بشرح كتاب (الحاوي الصغير في الفروع) ، فضلا عن شرحه لقصيدة كعب بن زهير الذي أسماه (كنه المراد في شرح بانت سعاد) ، إلى جانب قيامه بتدريس كثير من طلبة العلم .أما المرحلة الأخيرة من حياته والتي تمتد من سنة ٧٩١ - ٨٢١ هـ ، فقد نال فيها منصبا رفيعا إذ اختير ليكون منشئا في ديوان الإنشاء ، وقد ألف في هذه الفترة مقامة أثنى فيها على رئيس ديوان الإنشاء القاضي علاءالدين بن القاضي محيي الدين بن فضل الله سماها (الكواكب الدرية في المناقب البدرية) ، وكذلك وضع كتابه الشهير (صبح الأعشى في كتابة الإنشا) ليكون شرحا لمقامته السابقة ، وبقي القلقشندي في منصبه فترة طويلة ، ثم اختير بعد ذلك لينوب في الحكم وظل في منصبه هذا حتى توفي عن عمر ناهز الخامسة والستين عاما[١] .

وقد ألم بفنون عديدة فألف في الكثير من المجالات ، ويبدو أنه سلك هذا السبيل سبيل العلم والمعرفة في سن مبكرة قبل توليه وظيفة الإنشاء ، فقد كان لجهده الفقهي ونشأته الأدبية دور في وقوع الاختيار عليه لتولي ديوان الإنشاء ، وإذا به يستقبل هذا المنصب لاثبات مواهبه الأدبية فينشئ مقامته السابقة يفضل فيها صناعة الكتابة على غيرها، ويرجح كتابة الإنشاء على سائر فروع الكتابة .

---

[١] ابن إياس - بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

أشهر مؤلفاته

نستطيع القول إن أشهر مؤلف من مؤلفات القلقشندي هو كتابه الذائع الصيت (صبح الأعشى في كتابة الإنشا) ، ويصفه الدكتور جودت الركابي بأنه «ثمرة يانعة من ثمرات فكرنا العربي ، وموسوعة جامعة بل لعلها أجمع الموسوعات الأدبية والتاريخية والاجتماعية التي عرفها هذا النوع من التأليف منذ فجر تاريخنا حتى أيام المؤلف الأخيرة في مطلع القرن التاسع الهجري »[1]، وقد وزع محتوياته على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة استغرقت ١٤مجلدا أي حوالي ٧,٠٠٠ صفحة ، تحدث في المقدمة عن فضل العلم وشرف الكتابة وتطور الإنشاء خلال العصور ، وتفضيل النثر على النظم ، وصفات الكتاب وأدابهم وتاريخ ديوان الإنشاء وتطوره ، وتحدث في المقالة الأولى عن مجموع المعارف التي يحتاجها الكاتب في ديوان الإنشاء للقيام بمهمته ، أما المقالة الثانية فكانت في المسالك والممالك (الجغرافيا) ، والمقالة الثالثة في أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والكنى والألقاب ، أما المقالة الرابعة فهي أهم مقالات الكتاب وأضخمها ، وقد استغرقت ما بقي من الجزء السادس والجزءين السابع والثامن وقسما من التاسع قدم فيها القلقشندي فهرسا مطولا لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة مرتبة على حروف المعجم ، وتناول في المقالة الخامسة مسألة الولايات وطبقاتها من الخلافة والسلطنة والولايات وأرباب الأقلام ، ثم الألقاب من خلافية ومملوكية ، ثم البيعات والعهود ، وقد استغرقت ما بقي من الجزء التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، وتشتمل المقالتان

---

[1] الركابي -الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرابعة والخامسة على مئات الوثائق والنصوص الرسمية ، أما المقالة السادسة فقد تحدث فيها عن الوصايا الدينية والمسامحات وتصارع الخدمة السلطانية وغير ذلك ، وتحدث في مقالته السابعة عن الإقطاعات ونشأتها وأحكامها وأنواعها، أما المقالة الثامنة فكانت عن الأيمان وأنواعها منذ الجاهلية وفي عصور الإسلام ، والأيمان المملوكية والأميرية في الدول الإسلامية ، وتحدث في المقالة التاسعة عن عهود الأمان وعقدها لأهل الإسلام والكفر ، أما المقالة العاشرة فيذكر فيها القلقشندي فنونا من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وضمت خاتمة هذا المؤلف الكبير أمورا تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة مثل البريد وتاريخه في مصر والشام ، والحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته ، ثم ذكر البلح وطرائق نقله من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وقد طبع الكتاب ونشر في مصر ولبنان[1] .

وأما بقية مؤلفاته فهي :

- (الغيوث الهوامع) في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي.

- (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) في التعريف بقبائل العرب ألفه للمقر الجمالي يوسف الأمري.

- (قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان) في أنساب العرب أيضا - وقد نسبه صاحب كشف الظنون إلى والد المؤلف .

- (مآثر الأنافة في معالم الخلافة) في أنواع العهود والعقود والمخاطبات إلى جانب ترتيب الخلافة وتاريخها وطبقات الخلفاء والولاة مع ذكر الحوادث ، وقد ألفه

---

[1] الأيوبي - أفاق الشعر العربي ، ص ٩١ -٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للخليفة المعتضد على ما جاء في خاتمة الكتاب بقلم المؤلف .

وإلى جانب هذه الكتب هناك العديد من الرسائل التي كتبها القلقشندي وهي تزيد على مائة رسالة ضمها في كتابه (صبح الأعشى) .

وتحدثنا المصادر انه اشتغل بالفقه فخرج منه بشرح واف على (جامع المختصرات في فروع الشافعية) لشيخ مصري هو المدلجي كمال الدين بن عمر المتوفى سنة ٧٥٧هـ ، ويذكر حاجي خليفة اسم أبي العباس هنا بين من يذكر من شراح هذا الكتاب فيقول : «العلامة أحمد بن عبدالله بن محمد القلقشندي الشافعي»[١] ، ويخرج منه أيضا بشرح على كتاب (الحاوي الصغير في الفروع) للقزويني نجم الدين عبدالغفار الشافعي .

ويلم القلقشندي بالأدب فيخرج منه بكتابه (حلبة الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم) ، وهي رسالة أنشأها للمقر الزيني أبي يزيد الداودار الطاهري في سنة ٧٩٤ هـ حين ولاه السلطان برقوق وظيفة الداودارية .

ويخرج من الأدب أيضا بشرح على قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير يسميه هو فيقول :« وقد وضعت على هذه القصيدة شرحا بديعا سميته (كنه المراد في شرح بانت سعاد) فتح الله فيه بمعان لم أقف عليها في شرح لها قبل »[٢] .

ويرى القلقشندي أن كتابة الإنشاء تستلزم العلم بقبائل العرب ، فيفرغ لهذا الفرع من العلم فيؤلف فيه كتابين أولهما كتاب (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) أهداه لأبي المحاسن يوسف الأموي ، والثاني وهو (قلائد الجمان في

---

[١] حاجي خليفة - كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٧٣

[٢] القلقشندي - نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، ص ٤٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعريف بقبائل عرب الزمان) الذي أهداه لأبي المحاسن محمد الجهني الشافعي المؤيدي صاحب ديوان الإنشاء حينذاك ، وقد قصد في الكتاب الثاني أن يستدرك به على الكتاب الأول فيفصل شيئا ويعدل عن شيء ، وكان فراغه منه في الثالث عشر من شهر رجب سنة ٨١٩ هـ .

وكتابه (نهاية الارب في معرفة أنساب العرب) يقسمه القلقشندي إلى ثلاثة أقسام : المقدمة ، المقصد ، والخاتمة . تضم المقدمة خمسة فصول هي : الفصل الأول في علم الأنساب وفائدته ومسيس الحاجة إليه . والفصل الثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب ، وذكر أنواعهم وما ينخرط في سلك ذلك ، أما الفصل الثالث ففي معرفة طبقات الأنساب وما يلحق بذلك ، وأما الفصل الرابع ففي ذكر مساكن العرب القديمة التي منها درجوا إلى سائر الأقطار ، ويختتم المقدمة بالفصل الخامس والذي ذكر فيه أمورا يحتاج إليها الناظر في علم الأنساب .

أما مقصد الكتاب فكان في معرفة أنساب قبائل العرب ففيه فصلان:

الأول في ذكر عمود النسب النبوي وما يتفرع عنه من الأنساب .

والثاني في ذكرتفاصيل القبائل مرتبة مقفاة على حروف المعجم وما يتهيأ ذكره من مساكنهم الآن .

أما الخاتمة ففي ذكر أمور تتعلق بأحوال العرب وفيها خمسة فصول :

الفصل الأول : في ذكر معرفة ديانات العرب قبل الإسلام .

الفصل الثاني : في ذكر أمور من المفاخرات الواقعة بين قبائلهم وما ينجر إلى ذلك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث : في ذكر الحروب الواقعة بين العرب في الجاهلية ومبادئ الإسلام .

الفصل الرابع : في ذكر نيران العرب في الجاهلية .

الفصل الخامس : في ذكر أسواق العرب المعروفة قبل الإسلام .[١]

ومن الكتب المهمة التي ألفها القلقشندي كتاب (مآثر الأنافة في معالم الخلافة) الذي تجري فيه المعلومات بطريقة مرتبة في دقة ونظام بديع وتوالى الحوادث والتواريخ بأسلوب سهل ممتنع بحيث يقرأها القارئ من غير ملل ولا سأم إلى جانب ما ساقه المؤلف من طرائف وتنبيهات تمتع القارئ وتزيد معلوماته ومعارفه.

وقد رتب القلقشندي هذا الكتاب علي مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة ، تحدث في المقدمة عن معنى الخلافة ومن ينطبق عليه اسم الخليفة ، ومن تكون عنه الخلافة ، وكيفية النسبة إلى الخليفة وما يقع عليه من الكنية والألقاب .

أما الباب الأول فكان في وجوب عقد الأمانة لمن يقوم بها وبيان شروط الأمانة التي لا تصح دونها والشروط التي تنعقد بها ، وما يلزم الخليفة للرعية وما يلزم الرعية للخليفة وما ينعزل به الخليفة ويخرج به عن الأمانة .

الباب الثاني : في ذكر من ولى الخلافة من صدر الإسلام وهلم جر إلى زماننا ، وتفصيل حال كل خليفة منهم وولاة أقطار الإسلام شرقا وغربا في زمانه ، والحوادث والمجريات الواقعة في أيامه ، وبيان مقرات الخلافة وما انطوت عليه من الأقاليم

---

[١] القلقشندي - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص ٤ - ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترتيب الخلافة على ما كانت عليه في الزمن القديم ، وذكر المشاهير ممن ادعى الخلافة في بعض الأقاليم وبطلان شبهة دعاواهم .

الباب الثالث : في ذكر ما يكتب للخلفاء من البيعات والعهود في القديم والحديث.

الباب الرابع : فيما كان يكتب عن الخلفاء من ولايات ملوك الأقاليم وأمرائها وولايات الوزراء والقضاة ، والولاية على الصلوات ، ونقابة ذوي الأنساب ، وغير ذلك من سائر الولايات الدينية والديوانية ، وما يكتب عنهم الآن .

الباب الخامس : فيما كان يكتب عن الخلفاء في الإقطاعات وتحويل السنين وإلزام أهل الذمة الشرائط اللازمة لهم .

الباب السادس : في المكاتبات الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد بالخلافة والكتب الصادرة عن الملوك والوزراء ونحوهم .

الباب السابع : في ذكر أوائل منسوبة إلى الخلفاء وغرائب وملح وأعاجيب تتعلق بهم .

الخاتمة : في ذكر طرف من مناقب الإمام الأعظم المعتضد بالله خليفة العصر الموضوع له هذا الكتاب .[١]

---

[١] القلقشندي - مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، ج ١ ، ص ٥ - ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤

أسلوبه

عنى القلقشندي بالكتابة عناية فائقة ، وجرى أسلوبه في الغالب مع الطبع ما عدا مقدمات كتبه التي التزم في الجزء الأكبر منها بالسجع ، وكان غزير العلم وافر المعرفة، تجلى ذلك في في كتابه صبح الأعشى الذي قدم فيه مادة كبيرة من النثر العربي وعرضها بطريقة سهلة[١] . ومن الملاحظ أن القلقشندي لا يميل إلى أسلوب السجع في جميع كتاباته ، وإنما يميل في بعض الأحيان إلى الأسلوب المطلق ، البعيد عن السجع .

ومن الواضح أن كثيرا من كتاباته الرسمية التي تتعلق بالأغراض الديوانية ، تميل إلى أسلوب السجع ، كما أن الكتّاب في ذلك العصر يجودون إنشاءهم الديواني بأنواع المحسنات البديعية ، حتى غدا ذلك سمة الكتابة الرسمية في العصر المملوكي الثاني ، ومثال ذلك ما أنشأه القلقشندي بالإشارة للأمير جمال الدين يوسف البشاسي ، وذلك حين فوضت إليه الإشارة وكتب له به المقر الشمس العمري في سنة ٨٠٩ هـ استهله كالعادة بالحمد والتشهد ثم قال :

« ... وهذا وقد علا في الدولة القاهرة مقامه ، ورشقت أغراض مقاصدها بانقضاء الآجال في الواقع سهامه ، وساس العساكر فأحسن في سياستها التدبير ، وبذل في نفقاتها الأموال بمجامع القلوب ، واقتاد النفوس الأبية قهرا فأطاعه من بين الشمال والجنوب »[٢] .

---

[١] ناظم رشيد - في أدب العصور المتأخرة ، ص ١٤٩

[٢] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٤١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذ نلحظ بوضوح السجع في (مقامه ، سهامه) و (القلوب ، الجنوب) ، وإذا شئنا الوقوف على عَهْدِ كَتَبَهُ القلقشندي ، لوجدنا مقدار اهتمامه بالسجع في رسائله الديوانية ، ومما جاء فيه :

« ... تشهد به حضرات الأملاك ، وترقمه كف الثريا بأقلام القبول في صحائف الأفلاك ، وتباهي به ملوك الأرض ملائكة السماء ، وتسري بنشره القبول إلى الأقطار فتنشر له بكل ناحية علما ، وتطلع به سعادة الجد من ملوك العدل في كل أفق نجما ، وترقص من فرحها الأنهار فتنقطها شمس النهار »[١] .

ونلاحظ كيف أورد القلقشندي في هذه الفقرة عدة سجعات ، فهناك (الأملاك ، الأفلاك) ، (علما ، نجما) ، (الأنهار ، النهار) .

وإنما ميله إلى الأسلوب المطلق ، البعيد عن السجع فإنه واضح في خطبة كتابه (صبح الأعشى) وبعض النصوص الديوانية الأخرى ، ومنها المقدمة التي كتبها (في فضل الكتابة) إذ يقول فيها :

«والكتابة إحدى الصنائع فلا بد فيها من الأمور الأربعة : فـ(مادتها) الألفاظ التي تخيلها الكاتب في أوهامه وتصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة ، و(الخط) الذي يخطه القلم ، ويقيد به تلك الصور ، تصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة ، و(آلتها) القلم ، و(غرضها) الذي ينقطع بالفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية فتكمل قوة المنطق وتحصل فائدة للأبعد كما تحصل للأقرب ، وتحفظ صوره ، ويؤمن عليه من التغير والتبدل والضياع ، وغايتها الشيء المستثمر منها وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٣٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العظيمة العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسيمة في أمور الدين والدنيا »[١].

ونلاحظ أنه على الرغم من طول هذه المقدمة ، إلا أنها لم تضم أية سجعة ، وهذا خير دليل على أن القلقشندي غير مقيد بأسلوب النثر المسجع في كتاباته ، بل يميل في بعض الأحيان إلى أسلوب النثر المطلق ، كما لاحظنا آنفا .

---

[١] القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن حجة الحموي

١

اسمه ولقبه

هو تقي الدين[١] أبو بكر ، محمد[٢] بن علي بن عبدالله الحموي ، الأزراري ، المعروف بـ(ابن حجة الحموي) .

ولد سنة ٧٦٧ هـ بحماة ونشأ بها وتلقى علومه فيها، فحفظ القرآن الكريم أولا[٣] ، وقد اتخذ في مبادئ عمره وصباه عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له، فلقب بـ(الأزراري) ، ثم مال مبكرا إلى طلب العلم والأدب وقرض الزجل والمواليا، وجلس إلى الفقهاء وتتلمذ على يد الأدباء ، وعكف على الاطلاع وقراءة الكتب ، ورحل من مصر إلى مصر يطالع وينقب .

وتعد الفترة التي عاش من ٧٦٧ إلى ٨٣٧ هـ من أخصب الفترات في تاريخ العصر المملوكي الثاني وأملئها بالحوادث السياسية في الداخل والخارج حيث شهد قبل بلوغه العشرين من العمر انتقال الملك من المماليك البحرية إلى الجركسية ، وعاصر الملك الظاهر برقوقا وابنه فرجا والأمير شيخ الملقب بالمؤيد ، كما عاصر

---

[١] أنظر السخاوي - الضوء اللامع ج ١١ ، ص ٥٣ ، وأنظر ابن العماد - شذرات الذهب ج ٧ ، ص ٢١٩ ، وأنظر الصابوني - تاريخ حماة ، ص ١٥٨-١٥٩ ، وأنظر الزركلي - الأعلام ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، وأنظر رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي ، ص ٤٣-٢٥

[٢] الصابوني هو الوحيد نص على (محمد) في توثيق اسمه، انظر تاريخ حماة،ص : ١٥٨

[٣] ابن حجة - ثمرات الأوراق ، ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلطنة ابنه المظفر أحمد ، ثم الظاهر ططر ، ثم ابنه ناصر الدين محمد الذي آلت السلطة من بعده لابنه الأشرف برسباي عام ٨٢٥ هـ[١] .

٢

حياته

يذكر السخاوي في كتابه (الضوء اللامع)[٢] أن ابن حجة ارتحل عن بلده إلى الشام قبل عام ٧٩٠ هـ ، ومدح عددا من القضاة وأهل العلم في عصره شعرا ، ومدح كذلك الفخر بن مكانس ، وابنه المجد ، ومطلع قصيدته في مدح فخر الدين بن مكانس :

قد مالَ غُصْنُ النَّقَا عن صَبِّه هَيَفا يا ليته بنسيم العَتْبِ لو عَطَفا[٣] .

وقد لبث بمصر شهورا ثم فارقها إلى دمشق عام ٧٩١ هـ ، وكان الملك الظاهر برقوق يحاصرها ، واشتعل فيها حريق كبير ، فكتب في ذلك رسالة إلى صديقه ابن مكانس يصف له رحيله وما عاناه من أهوال ، وتسمى هذه الرسالة (ياقوت الكلام في أيام الشام) ، وتبلغ نحو مائتي سطر .

وكان ابن حجة في حماة قبل عام ٨٠٢ هـ ، وغادرها إلى الشام وهناك شهد الحرب بين الملك الناصر فرج بن برقوق وبين أتابكية (أيتمش البجاشي) ، ففر من

---

[١] باشا - تاريخ الأدب العربي ، ص ٥٨٢ - ٥٨٥ ، وانظر رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي ، ص ٥ - ٨

[٢] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ١١ ، ص ١٤٤

[٣] المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجه الحرب وأهوالها ، وكان بطرابلس الشام فسار بطريق البحر إلى مصر ، وبلغ القاهرة عام ٨٠٢ هـ ، ولبث فيها مدة بين عامي ٨٠٢ - ٨٠٣ هـ ، ونظم فيها قصيدة في التشوق إلى حماة ، مطلعها:

يَا طيِّبَ الأخبار يا ريحَ الصَّبَا يا من إليه كُلُّ قلبٍ قد صَبَا[١] .

ولما آلت السلطنة المصرية إلى المؤيد شيخ عام ٨١٥ هـ ، نقل إلى القاهرة بعض رجال حاشيته بدمشق ومنهم ناصر الدين بن البارزي فجعله كاتب سره ، ورئيسا لديوان إنشائه ، ونوه ابن البارزي لدى المؤيد بصديقه تقي الدين فاستقدم إلى القاهرة في ذلك العام وعين منشئا للديوان تحت رياسة ابن البارزي فاشتهر وبعد صيته وصار أحد الأعيان[٢] .

وظل منذ ذلك الحين يدبج رسائل الديوان عند الملك المؤيد شيخ ويرفع إليه قصائد المديح في المناسبات ، وأول هذه المناسبات قدومه من دمشق ، فطلب إليه نظم قصيدة مدح للمؤيد تتضمن أهم الأحداث في حياته ، فنظم قصيدة في نحو ٨٦ بيتا ، أنشدها بين يدي المؤيد في يوم مشهود فحازت القبول وخلع عليه تشريفا وعاد وهو منشئ الديوان .

ولبث ناعم البال رخي العيش في كنف المؤيد وابن البارزي حتى مات ابن البارزي عام ٨٢٣ هـ وتبعه المؤيد عام ٨٢٤ هـ ، وعاش ابن حجة بمصر بعد ذلك وكتب لسلاطينها المظفر بن المؤيد ، والظاهر ططر وابنه الصالح محمد ثم الأشرف برسباي الذي ولي السلطنة عام ٨٢٥ هـ ، وهجر العمل في الديوان بعد ذلك ، لأنه

---

(١) ابن حجة - خزانة الأدب ، ص ٢٠ - ٤١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يجد من رئيس الديوان الذي حل محل البارزي حسن المعاملة وطيب الصحبة فقلقت نفسه .

وكان ابن حجة مزهوا بنفسه مدلا بأدبه ، فخلق له هذا الزهو خصوما وأعداء ظلوا يكيدون له « وهجاه كثيرون من شعراء وقته بمقاطع مقذعة وكأنه - والله أعلم - لأنه كان ضنينا بنفسه وبشعره غالبهم كآحاد تلاميذه »[١].

وعلى نحو من هذا تحدث ابن العماد الذهبي في كتابه (شذرات الذهب) فقال «إن ابن حجة الحموي كان مدلا بنفسه مزريا على غيره من شعراء مصر أيام إقامته بها في زمن المؤيد شيخ ، وأن المؤيد كان قد قدمه وقربه فازداد جاها ومنزلة ، ولما مات المؤيد تسلط عليه جماعة من شعراء عصره وهجوه ».

ومات ابن حجة في بلده الأثير ودفن فيه وبنيت على قبره قبة بقيت جدرانها إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، وذلك في أيام سلطنة (برسباي) بعد أن خدم في دواوين الدولة ردحا طويلا ، غير أن أخصب فترات حياته هي التي عاشها في عهد (المؤيد شيخ)[٢] .

٣

ثقافته

كان ابن حجة موسوعيا متعدد الثقافة ، طوافا في آفاق العلم والأدب ، رحالة في مختلف أسفارها قديمها وحديثها ، محيطا بنتاج من سبقوه ولا سيما الشعراء

---

[١] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ١١ ، ص ١٤٤

[٢] رزق سليم - تقي الدين بن حجة الجموي ، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكتاب والنقاد والبلغاء ، واسع الإحاطة بأدب القاضي الفاضل ، وصفي الدين الحلي، وابن نباتة وبآداب معاصريه ، وقد تأثر أدبه وذوقه بأدب هؤلاء الفحول ، وبدا ذلك واضحا في مناهج أسلوبه في الشعر والكتابة .

وقد تتلمذ على أيدي عدد من العلماء المشهورين في عصره ، سواء كان في مجال الفقه أو الأدب ، مثل الشاعر عز الدين الموصلي وغيره.

ومن تلاميذ الحموي الأديب الشاعر محمد بن حسن النواجي صاحب كتاب (حلبة الكميت) ، وقد نسخ النواجي عن شيخه ابن حجة كتابه (قهوة الإنشاء) ، وفيه يثني على شيخه ثناء مستطابا ، ويدلنا هذا على مدى ما كان بين الشيخ وتلميذه من محبة وعلى ما كان لابن حجة من شأن كبير بين الأدباء[١].

وقد تعددت جوانب ثقافته فهو مؤلف وناقد وكاتب وشاعر ، ففي مجال التأليف كان بارعا غلبت عليه النزعة الأدبية أكثر من العلمية ، وتدل مؤلفاته على خبرة طويلة ومعرفة واسعة في ضروب العلم والمعرفة .

إن ثقافته الواسعة أهلته لنيل أرفع المناصب وبلغ منزلة رفيعة إذا صار منشئ ديوان الإنشاء الشريف في القاهرة على عهد المؤيد شيخ ، وقد أضافت له هذه المنزلة اطلاعا واسعا على مجريات أمور الدولة عامة ، ومعلوم أن هذا المنصب الرفيع لا يناله إلا من كان له باع طويل في فن الكتابة وثقافة واسعة في شتى المجالات .

---

[١] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤

أشهر مؤلفاته

إن ابن حجة مؤلف بارع مشهور إلي جانب كونه ناقدا وكاتبا وشاعرا ، غلبت عليه النزعة الأدبية أكثر من العلمية[١] ، ومؤلفاته كثيرة منها المطبوع والمخطوط حتى اليوم ، ومنها الضائع والمفقود ، ومن تلك المؤلفات قصائده ودواوين شعره التي جمع فيها ما نظمه في مناسبات حياته ، ومنها : ديوانه ، وقصيدته البديعية، وقبول البينات وغيرها، وكذلك مختارات من شعره : وهي التي جمع فيها ما اختاره من شعر.

إلى جانب تلك المؤلفات ألف ابن حجة كثيرا من الرسائل الرسمية في ديوان الإنشاء ، أو الإخوانية خارج الديوان ، أو نحو ذلك من الرسائل الأخرى منها : قهوة الإنشاء ، ومجرى السوابق ، ورسالة السكين وغيرها، وكذلك كتب المحاضرات التي جمع فيها ما اختاره من محاضرات الأدباء ورسائلهم ونوادرهم ، ومنها : ثمرات الأوراق ، وبروق الغيث ، وتأهيل الغريب وغيرها.

وأما نتاجه في مجال النقد والبلاغة فقد سجل كثيرا منه في مؤلفاته منها خزانة الأدب ، وكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام وغيرهما[٢] ، ولبيان مدى أهمية مؤلفاته للأدباء والمتعلمين وغيرهم ، فإنه ينبغي أن نقدم بعض محتويات كتبه للتعرف إليها :

---

[١] رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي ، ص ٣٦

[٢] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١-ثمرات الأوراق :

هذا الكتاب (ثمرات الأوراق ، فيما طاب من نوادر الأدب وراق) هو مجموعة من لطائف النوادر ، والحكايات ، والنكت ، والروايات ، والرسائل النثرية مما دار في مجالس الملوك والعلماء ، ومما وقع للأدباء والفضلاء ، بين جد ومجون ، وأدب ولغة ، وعظات ونقد . ومجموعاته استطرادية لا تقف كل مجموعة تحت عنوان ، ويغلب عليها النثر ، ويتخللها أبيات من الشعر. ويسوقها المؤلف بعباراتها الأصلية أحيانا، وأحيانا أخرى بعباراته وبقلمه . وكثيرا ما يمهد لها أو يعقب عليها أو يستدرك أو يوازن أو ينقد .

٢- خزانة الأدب :

وهي تضم قصيدة بديعية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام سماها ابن حجة (تقديم أبي بكر) معارضا بها بديعيتي الصفي الحلي والعز الموصلي ، وضمن كل بيت فيها نوعا بديعيا ، مع الإشارة إلى اسم هذا النوع في البيت نفسه ، ثم شرح بديعيته وهي جماع ألوان البديع لعهده ، وتبلغ نحو ١٤٢ نوعا، ووازن بينها وبين بديعيتي الموصلي والحلي بيتا بيتا ، مبنيا مزايا أبياته وأرجحيتها في أداء المعاني وتوفية الألوان البديعية ، وما ينتاب بعض أبياتهما من نقص أو ضعف أو نحوهما . ويدفعه الاستطراد إلى الموازنة بين أبياته وأبيات بديعية ابن جابر الأندلسي المعروفة ببديعية العميان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - قهوة الإنشاء :

جمع ابن حجة عشرات من رسائله الديوانية والإخوانية وأكثرها الرسائل الديوانية ، وذلك في سنة ٨٣٢هـ ، ويشكل منها ديوانا لرسائله النثرية ، وكلها مكتوب بأسلوبه أدبي ممتع حتى غدت تلك الرسائل سجلا لأحوال الدولة وحوادثها العليا وعلاقاتها في الداخل والخارج في ذلك الوقت، مما يجعلها وثائق رسمية يعتمد عليها المؤرخ فيما بعد .

٥

أسلوبه

إن اشتغال ابن حجة في ديوان الإنشاء الذي كانت له أصول وقواعد في الكتابة منها أن يكون الأسلوب فنيا قائما على أساس من خصائص أسلوب القاضي الفاضل جعلته يلتزم بهذا الأسلوب الأدبي والذي تتلخص خصائصه في التزام السجع وإطالة فقراته وفي اصطناع الجناس والطباق والمقابلة وفي إيراد التورية والاستخدام والتوجيه والتلميح والإيهام والاعتماد على التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب من حكم وأقوال مأثورة ، كما أن ابن حجة كان من أشد الناس في عصره تعصبا للبديع وولعا به وإكثارا منه ، فمن ذلك أنه أنشأ قصيدة سماها (البديعية) تضمنت ١٤٢ بيتا من الشعر[١] .

---

[١] ابن حجة - ثمرات الأوراق ، ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى جانب ذلك راعى منشئو دواوين الإنشاء في كتابة رسائلهم الرسمية التفخيم والمبالغة في إيراد الأوصاف والألقاب والأدعية للمكتوب عنه أو إليه ، وقد سار ابن حجة على هذا المنهج وطبعت رسائله الديوانية التي دبجها بهذا الطابع .

أما في الموضوعات الأخرى فقد مال إلى الإكثار من التورية والتشبيه والإستعارة وبالذات في الرسائل الإخوانية ، والرحلات وهي الرسائل التي يقص فيها أنباء رحيله من مصر إلى مصر ، والمقالات الوصفية التي تكون في وصف أداة أو منظر أو حدث ، والمطارحات والمعارضات وهي المقالات التي تكتب في موضوعات سابقة رغبة في التفوق على ما كتب فيها ، والأهاجي وهي مقالات في الذم والسخرية ، والتقاريظ وهي مقالات مدح لكتاب أو قصيدة ، ورسائل التلاعب بالألفاظ وهي التي يكتبها لإظهار براعته في ضرب من الكلمات أو الأسلوب ، ومنها رسالته المهملة وكتبها عام ٨١٤ هـ وكل حروفها غير منقوطة .

لقد مال في أسلوبه إلى المحسنات البديعية ، وكثر في كتاباته الجناس والطباق والتورية ، واهتم كثيرا ببراعة الاستهلال مع رقة الألفاظ وسهولتها ، وبعدها عن الخشونة والغموض .

نستطيع الوقوف على أسلوبه من خلال اطلاعنا على إحدى رسائله وهي (الرسالة البحرية) التي كتبها إلى صديقه بدر الدين الدماميني عام ٨٠٢ هـ من القاهرة إلى الإسكندرية عند دخوله إلى القاهرة فارا من أهوال الحرب ومنها قوله:

« يقبل الأرض التي سقى روحها ، بنزول الغيث فأثمر الفواكه البدرية ، وطلع بدر كمالها من المغرب فسلمنا لمعجزاتها المحمدية ، وجرى لسان البلاغة في ثغرها فسما على العقد بنظمه المستجاد وأنشد - وقد ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد حَسُنَتْ بك الأيام حتى كأنك في فم الدهر ابْتسامُ

فأكرم به من مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام ، ومدينة علم تشرفت بالجناب المحمدي فعلى ساكنها السلام ، ومجلس حكم ما ثبت للباطل به حجة ، وعرفات أدب أن وقفت بها وقفة كنت على الحقيقة ابن حجة »[1] .

فنلاحظ أولا ميله إلى السجع (البدرية ، المحمدية) و (المستجاد ، البلاد) ، والجناس التام في كلمة (حجة) التي هي التبرير وكلمة (حجة) من الحج ، وكذلك أخذه جملة (لم يخلق مثلها في البلاد) من الآيات القرآنية ، ومال كعادته في إيراد أبيات من الشعر في ثنايا رسالته .

---

[1] رزق سليم - تقي الدين بن حجة الحموي ، ص ٩٠ - ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شمس الدين النواجي

١

اسمه ولقبه

هو شمس الدين بن محمد بن حسن بن علي بن عثمان النواجي الشافعي[١]، أما كنيته فهي (أبو عبدالله)، وعلى عادة أهل العصر الذين يختارون لأنفسهم ألقابا يعرفون بها، فقد اختار لنفسه لقب شمس الدين، وكانت الألقاب مضافة إلى الدين يمنحها كبار الدولة بإذن من السلطان.

ونسبته إلى قرية نواج مركز طنطا في مصر، وهو شافعي المذهب، أما عن مولده فقد اختلفت المصادر في تحديد البلد الذي ولد فيه النواجي، فبعضها يذكر أنه ولد بقرية نواج من الغربية من أعمال القاهرة، في حين تذكر مصادر أخرى أن مولده في مدينة القاهرة دون أن تعين البلد الذي ولد فيه.

٢

حياته

كما اختلفت المصادر في تحديد المكان الذي ولد فيه شمس الدين النواجي اختلفت أيضا في تحديد السنة التي ولد فيها، فبعضها تقول إنه ولد قبيل سنة

---

[١] ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ١٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٨٨هـ، وهذا الرأي ذهب إليه صاحب النجوم الزاهرة ، وتبعه كل من السيوطي في نظم العقيان[١] ، وابن إياس[٢] ، وعمر رضا كحالة[٣] ، والزركلي.[٤]

وأول مهنة زاولها النواجي هي مهنة نسخ الكتب ، وقد اتخذها مصدرا للرزق والمعيشة ، وكان يتعاطي الكتابة لنفسه أو لغيره بالأجرة ، وتأتي بعد مهنة النسخ مهنة التعليم ، فقد قَدِمَ النواجي إلى القاهرة وطلب العلم وسمع الكثير من مشايخ عصره ، وتفقه على جماعة منهم وقد أتاح له هذا التعليم أن يدرس في المدارس الموجودة في ذلك الوقت ، فأسندت إليه وظيفة تدريس الحديث بالجمالية والحسينية.[٥]

ولم يكن النواجي يدرس الحديث فحسب ، بل كان بالإضافة إليه يدرس اللغة والعروض، وقد تَخَرَّجَ عليه عدد من علماء العصر منهم المحب الخطيب المالكي ، وشهاب الدين بن أسد ، وعبدالعزيز أبو البركات وغيرهم .

ومن الوظائف التي شغلها الولاية على بعض البلاد ، فقد عَيَّنَهُ علم الدين صالح البُلقِيني واليا على بعض الجهات ، فقال النواجي يشكره :

شكرا فقد مَنَّ الإله علي التسـديد في الأقوال والأفعال

وصحبت في دنياي صالح وقته فحظيت منه بصالح الأعمال

---

[١] السيوطي - نظم العقيان، ص ١٤٤

[٢] ابن إياس - بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٦

[٣] معجم المؤلفين ، ج ٩ ، ص ٢٠٣

[٤] الزركلي - الاعلام ، ج ٩ ، ص ٣٢٠

[٥] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

ثقافته

أخذ النواجي عن كثير من الشيوخ ودرس عليهم الفقه واللغة والحديث والنحو وتجويد القرآن والخط ، فلا عجب أن نرى مؤلفاته ومصنفاته العديدة في ضروب مختلفة ، فقد ألف في النحو والبلاغة والأدب واللغة والعروض والشعر والنثر.

وقد أخذ النواجي عن عدد من العلماء والشيوخ البارزين في ذلك العصر ، ومن أشهرهم عبدالرحمن الصائغ شيخ الكتاب في وقته ،الذي أخذ النواجي عنه الخط [١].

وتَخَرَّجَ النواجي على أشهر علماء الفقه الشافعي في ذلك العصر ، ومن هؤلاء العلماء البرهان البيجوري ، وقد اجتمع له في علم الحديث من الشيوخ من يشار إليهم بالبنان ، ومن أشهرهم شهاب الدين بن حجر العسقلاني الإمام المتفرد في معرفة الحديث وعلله[٢].

أما علماء اللغة الذين تتلمذ النواجي على أيديهم فمنهم أيضا الأديب تقي الدين بن حجة الحموي ، وكان النواجي من تلاميذه المقَرَّبين .

---

[١] السخاوي - الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٢٢٩

[٢] ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٥٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما سبق نلاحظ أن النواجي ظفر بنصيب غير قليل من العلم والمعرفة ، لما أتيح له الإفادة من هؤلاء العلماء والشيوخ في مختلف ضروب العلم والأدب .

٤

وفاته

توفي الأديب شمس الدين بن محمد النواجي الشاعر المشهور في القاهرة ، وذلك سنة ٨٥٩هـ من الهجرة[١] ، ولما استشعر النواجي أن أجله قد اقترب ، أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان :

لئن كنت في الدنيا ذنوبي تكاثرت ولا عمل في الحشر ألقاه ينجيني
فرحمة ربي في المعاد ذخيرتي ستنفعني من بعد غسلي وتكفيني

وقال يعزي نفسه وقد مرض مرضا شديدا وأشرف على الموت :

أيا نفس لا تخشي لهيب جهنم ولا تجزعي إن حل ريب منون
فظني به أني إذا مت مسلما يباعدني من حرها ويقيني

ولما مات رثاه شهاب الدين المنصوري بهذين البيتين :

رحم الله النواجي فقد فقد الدنيا وأبقى ما روى

---

[١] ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ١٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانطوى في شقة البين فيا حسرة العشاق من بعد النوى[1]

٥

مؤلفاته

لقد ألف النواجي كتبا كثيرة في ضروب العلم المختلفة ، وكان مرد ذلك إلى كثرة اطلاعه ، وقد شملت مؤلفاته الأدب واللغة والبلاغة والنحو والعروض وغيرها.

يمكننا أن نقسم مراحل التأليف عنده إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : وفيها تبع النواجي في التأليف شيخه ابن حجة الحموي ومن سبقه من المؤلفين ، فقد ألف كتاب (تأهيل الغريب في الشعر) مختارا العنوان نفسه الذي اختاره شيخه ابن حجة لكتابه (تأهيل الغريب) ، وألف كتاب (العذار في وصف العذار) مختارا العنوان نفسه الذي اختاره الصفدي لكتابه (خلع العذار في وصف العذار) .

المرحلة الثانية : وهي تأليف الكتب المستقلة والمتخصصة ، ويعد كتاب (رياض الألباب ومحاسن الآداب) من بواكير مؤلفات النواجي إذ ألفه سنة ٨١٦ هـ ، وقد ضمنه أكثر من عشرين بابا ، جعل الباب الأول للحكمة والأمثال ، وقد أفرد لهذا الباب فيما بعد كتابا مستقلا سماه (تحفة الأديب في الأشعار التي جرت مجرى الأمثال) ، اختصره في كتاب سماه زهر الربيع في المثل البديع ضمنه أكثر من

---

[1] ابن إياس – بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألف مثل لكبار شعراء العربية كالمتنبي والبحتري وأبي تمام وشعراء المعلقات وغيرهم .

على الرغم من مؤلفاته المتنوعة ، إلا أن معظمها لم تطبع ، ولا تزال مخطوطة ، وما يوجد منه في المكتبات الأوروبية أكثر بكثير مما يوجد في المكتبات العربية كما يتضح من هذا الجدول التوضيحي :

١- حلبة الكميت - مطبوع - مطبعة إدارة الوطن ١٢٩٩هـ

٢- الشفاء في بديع الاكتفاء - مخطوط - غوطا والاسكوريال

٣- روضة المجالسة وغبطة المجانسة - مخطوط - الاسكوريال

٤- عقود اللآل في موشحات الأزجال - مخطوط -الاسكوريال

٥- الصبوح في مجالس الشراب عند الصباح - مخطوط - برلين

٦- التذكرة في الأدب - مخطوط - برلين

٧- نزهة الألباب في أخبار ذوي الألباب - مخطوط - برلين

٨- مجموعة قصائد في مدح النبي - مخطوط - برلين

٩- تحفة الألباب (وهو مجموعة أشعار تجري مجرى الأمثال) - مخطوط - برلين

١٠-صحائف الحسنات في وصف الخال - مخطوط -يوجد بكثرة في مكتبات أوروبا

١١-تأهيل الغريب (مجموعة أشعار غزلية) - مخطوط -باريس

١٢-رسالة تتعلق بالقوافي - مخطوط - تونس (مجموعة مخطوط العاشورية)

١٣-المقدمة في صناعة المنظوم والمنثور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤-مراتع الغزلان في الحسان من الغلمان - مخطوط - دار الكتب المصرية

١٥-خلع العذار في وصف العذار - مخطوط - الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية

١٦-الدر النفيس فيما زاد على جنان الجناس للصفدي وأجناس التجنيس للحلي - مخطوط - دار الكتب المصرية

١٧-الحجة في سرقات ابن حجة - مخطوط - دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وغيرها من المخطوطات .

٦

منهجه في الكتابة

في كتاب (الحجة في سرقات ابن حجة) وهو كتاب رائع حقا وعلى درجة كبيرة من الأهمية فنيا وتاريخيا.

وفيما عدا الخطبة وتوجيه كلام المقرظين فإن منهج النواجي في الحجة أنه يورد القصيدة أو المقطوعة من شعر ابن حجة بقوله : الكلام على القصيدة التي امتدح بها فلانا أو المقطوعة التي قالها في كذا ثم يحكم بسرقة أبياتها بيتا بيتا ، أو بيتين بيتين بأن ينص على بيت ابن حجة أو بيتيه ثم يقول : إنه أخذه أو أخذهما من قول فلان كذا ، وقد يقول : قال فلان كذا فأخذه ابن حجة أو سرقه منه وقال كذا، فإن أمكن الاعتراض على النواجي بأن ابن حجة زاد ما أخذه لطيفة فإن هذه اللطيفة أن عابها وإن لم يعبها حكم بسرقتها هي الأخرى وهكذا ، حتى إذا أتى عليها عقد فصلا عنوانه (الكلام على ما وقع فيها من الخطأ واللحن والضرورات والمعاني الفاسدة والمعترضة والتراكيب القبيحة وما لم يفهم له معنى ، والأبيات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تحتاج إلى روابط والتي أعاد معناها والتي أعادها بلفظها والقوافي القلقة والألفاظ الثقيلة والمستهجنة ثم المكررة والحشو وغير ذلك)[١]

وأما في نقده للمقدمة فيعرض لقضية اللفظ والمعنى بما يفيد أنه من أنصار المعنى فهو يذكر قول ابن حجة في خطبة ديوانه : «الحمد لله الذي لا يحصر مجموع فضله ديوان» ، ثم ينقده بقوله :«قصد بذلك المناسبة بين كلمتي (مجموع) و(ديوان) فأخل ببلاغة المعنى لأنه لا يلزم من نفي المجموع نفي البعض ، فلا يلزم من عدم حصر مجموع فضل الله عدم حصر بعضه ، والفرض أن فضل الله تعالى لا يحصر مجموعه ولا بعضه ، ولو قال :« الحمد لله الذي لا يحصر بعض فضله ديوان» لكان أرشق في اللفظ ، وأبلغ في المعنى ولزم نفي المجموع من باب أولى ، وإنما أوقعه في ذلك تعبده بخدمة الألفاظ وتهافته على لفظتي (مجموع) و(ديوان) فكان بمنزلة من داوى جسده وترك روحه عليلة[٢].

ويقول ابن حجة :«وبعد ، فهذه أوراق في رياض الأدب زاهرة ، بل نجوم في سماء البلاغة زاهرة» ، فينقده النواجي قائلا : «أعاد لفظة زاهرة مرتين في السجعتين كما رأيت وهو خطأ ، فإن مادتهما واحدة ، وكأنه لما رأى أن الأول راجعة إلى الأوراق ، والثانية إلى النجوم توهم جواز ذلك وأنه بمنزلة قوله (الزهر) و(الزهر) بالفتح والضم حتى يكون جناسا وهو خطأ صريح»[٣].

---

[١] النواجي – الحجة في سرقات ابن حجة ، (ميكروفيلم) ، ورقة ٨ ، ووقة ٨٢

[٢] المصدر نفسه ، ورقة ٢ – ٣

[٣] المصدر نفسه ، ورقة ٢ – ٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيوطي

١

اسمه ولقبه

وهو عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب ابن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي[١]، ولد السيوطي المعروف بجلال الدين في مدينة القاهرة في مستهل شهر رجب سنة ٨٤٩هـ، من أب جليل منتسب إلى أسرة توفرت على العلم واشتهرت بالمعرفة، ولم ينعم عبدالرحمن طويلا بالرعاية الأبوية، فقد انتقل والداه إلى رحمة الله ولم يزل طفلا رطب العود غض الإهاب [٢] في منتصف العقد الأول من عمره. يقول السيوطي في ترجمته لنفسه :«نشأت يتيما فحفظت القرآن ولي دون ثمان سنين، ثم حفظت العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية بن مالك وشرعت في العلم من مستهل سنة ٨٦٤هـ»[٣].

وينتهي نسبه من جهة أبيه إلى أصل أعجمي وقد رجح ذلك حين ذكر أن جده الأعلى كان أعجميا أو من الشرق وأن النسبة بالخضيري هي إلى الخضيرية محلة

---

[١] السيوطي - تاريخ الخلفاء، ص ٣

[٢] الشكعة - جلال الدين السيوطي، ص ٥

[٣] السيوطي - حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢٩٠، وانظر الشكعة - جلال الدين السيوطي، ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ببغداد .[١]

وقد ترجم جلال الدين لوالده في كل من كتابيه بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، فقال :« إنه أبو بكر بن فخر الدين عثمان بن ناصرالدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ العارف بالله تعالى همام الدين بن الخضيري السيوطي الشافعي » ، ويستطرد في اضفاء صفة العلم والفضل على والده فيقول : « والدي العلامة ذو الفنون كمال الدين أبو المناقب »[٢].

وترجع نسبته إلى أسيوط لاستقرار أجداده فيها ، وقد ولد أبوه كمال الدين فيها، وكان جده الأعلى همام الدين متصوفا ، وقد ترجم السيوطي لأبيه كمال الدين ضمن فقهاء الشافعية بمصر، وكانت له صلة طيبة بخلفاء بني العباس في مصر ، ونبغ في علوم عدة منها الفقه الشافعي والأصول والكلام والنحو والحديث ، وأجيز للتدريس عام ٨٢٩ هـ ، وبرز في الإنشاء ، ودرس الفقه بالجامع الطولوني .

٢

حياته وثقافته

عندما بلغ الثالثة من عمره ، اصطحبه والده إلى مجلس الحافظ ابن حجر، وهو شيخ لأبيه ، وقد كان لهذا المجلس أثره العميق في نفسه ، عندما توفي أبوه عام ٨٥٥ هـ ولم يكن السيوطي قد أتم السادسة من عمره ، وقد ولى الوصاية عليه بعد

---

[١] السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٩٠

[٢] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، وأنظر السيوطي - بغية الوعاة، ج ١ ، ص ٤٧٢ ، وأنظر ، الشكعة - جلال الدين السيوطي ، ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبيه أحد أصدقائه من الصوفية .

شرع السيوطي بحفظ القرآن قبل وفاة أبيه ، وبلغ في الحفظ عند وفاته إلى سورة التحريم.[١] وواصل الحفظ بعد وفاة أبيه فأتم القرآن الكريم ولم يبلغ الثامنة من عمره .[٢]

وقد أجيز بتدريس العربية في مستهل عام ٨٦٦ أي حين كان في السابعة عشرة من عمره ، وابتدأ بالتأليف في هذه السنة فكتب شرحا للاستعاذة والبسملة واطلع عليه شيخه علم الدين البلقيني شيخ الإسلام فكتب عليه تقريظا، ولزم عليه كثيرا من أبواب الفقه وأجازه بالتدريس والإفتاء في عام ٨٧٦ هـ حين كان السيوطي في السابعة والعشرين من عمره ، وفي عام ٨٧٧ هـ تولى السيوطي تدريس الحديث بعد وفاة الفخر المقسي ، ويذكر السيوطي أنه تتلمذ في علم الحديث وحده على نحو ١٥٠ شيخا من النابهين في هذا العلم الشريف [٣] ، كما تولى إلى جانب ذلك وظيفة أخرى هي مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام بالقرافة ، وبقي يجمع هذه الوظائف حتى ناهز الأربعين من عمره .

وحين بلغ الأربعين مال إلى الهدوء وزهد في الدنيا فترك وظائفه السابقة وأراد أن يعتزل ويعتكف إلا أن ذلك لم يتم إلا لبضعة شهور حتى انتقل إلى وظيفة أكبر شأنا وهي مشيخة الخانقاه البيبرسية وذلك في عام ٨٩١ هـ ، واستمر شيخا عليها حتى سنة ٩٠٦ هـ ، فصرف عنها بأمر من السلطان طومان باي[٤] .

---

[١] ابن العماد - شذرات الذهب ، ج ٨ ، ص ٥٢

[٢] السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٩١

[٣] الشكعة - جلال الدين السيوطي ، ص ١٣

[٤] ابن إياس - بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٥ - ٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مال السيوطي بعد ذلك إلى العزلة والانقطاع إلى العبادة والتأليف إذ ابتعد عن الحياة العامة بالرغم من ميل السلطان الغوري إلى إشراكه في الحياة العامة ، وتوليته بعض المناصب لما كان يكن له من اكبار حتى إذا ما انقضت ثلاث سنوات على هذه العزلة وتوفي الشيخ يس البلبيسي شيخ البيبرسية عام ٩٠٩ هـ عرض على السيوطي أن يعود مرة ثانية إلى وظيفته السابقة ولكنه رفض ذلك منشدا بيتا من الشعر الحكيم :

وألذ من نيل الوزارة أن ترى يوما يريك مصارع الوزراء[١] .

وكان السيوطي في هذه المرحلة من حياته يسلك المسلك العملي للصوفية وقد أعرض عن الدنيا وأهلها وامتنع عن الذهاب إلى الأمراء والسلاطين .

توفي السيوطي ليلة الجمعة ١٩ من جمادي الأولى عام ٩١١ هـ وكان مرضه ٧ أيام بورم شديد في ذراعه اليسرى ، وقد أكمل من العمر ٦١ سنة و١٠ أشهر ، وكان له مشهد عظيم ودفن بجوشي ، خارج باب القرافة من جهة الشرق وقبره ظاهر وعليه قبة .

كانت كتابات السيوطي في حياته موضع اهتمام عامة الناس وخاصتهم ، وكانت فتواه تحظى بهذا التقدير ، وكان السلاطين يقدرونه تقديرا بالغا ويعرفون منزلته ويتبعون ما يفتي به أو يشير إليه . ففي عام ٨٩٦ هـ ذاع بين الناس فتوى السيوطي بعدم جواز البناء على ساحل الروضة لأن الإجماع منعقد على منع البناء في شطوط الأنهار الجارية ، وقد كتب في ذلك رسالة سماها (الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر) وقد أذعن لهذه الفتوى القضاة في عصره .

---

[١] الشكعة - جلال الدين السيوطي ، ص ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى جانب إلمامه بفنون الكتابة من أدب وفقه وغيرها ، فقد نَظَمَ الشعرَ وله منظومات علمية عديدة فضلا عن الأجوبة الفقهية التي نظمها شعرا ، ومن منظوماته العلمية :

- التبري من معرة المعري ، وهي أرجوزة في أسماء الكتب .

- الخلاصة في نظم كتاب الروضة في الفقه .

- الفريدة الألفية في النحو والصرف والخط .

- التثبيت عند التبييت وهي أرجوزة في سؤال الميت في القبر نحو مائة وخمسين بيتا .

- تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة وهي اجابة عن نحو ١٠٠ من الأسئلة والألغاز أجاب عنها نثرا ، ثم نظم إجاباتها.[١]

---

[١] السيوطي - الحاوي ، ج ٢ ، ص ٥٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣

مؤلفات السيوطي

عرف السيوطي بكثرة مؤلفاته ، وقد ذكر في ترجمته لنفسه نحو ٣٠٠ مصنف [١] ، ومن بعض مؤلفاته المهمة هي :

في علوم القرآن والتفسير:

إهتم جلال الدين السيوطي اهتماما كبيرا بالقرآن الكريم وعلومه ، فهو صاحب أكثر من تفسير ، ولعل تفسيره الجلالين الذي بدأه جلال الدين المحلي وأتمه السيوطي يعتبر من أشهر التفاسير المتواترة التداول بين جمهرة المسلمين ، كما أن كتابه المعروف بالإتقان في علوم القرآن يعد أشهر كتاب في هذا الموضوع ، ولعل أشهر ما بين أيدينا في هذا السبيل بعد الكتابين السابقين :

الدر المنثور في التفسير بالمأثور

لباب النقول في أسباب النزول

الألفية في القراءات العشر

التحبير لعلم التفسير

ترجمان القرآن في التفسيروغيرها .

---

[١] السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ١، ص ٢٩٢ - ٢٩٧ ، وانظر السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الحديث النبوي الشريف وعلومه :

روى السيوطي عن نفسه بأنه يحفظ ٢٠٠٠٠٠ حديث[١] ، ومن ثم فإنه ألف عشرات من كتب الحديث الشريف التي يشتمل بعض منها على بضعة أجزاء. وهنا نقدم بعض الكتب التي ألفها السيوطي تحت هذا الموضوع :

الأحاديث المنيفة

إسعاف المبطأ في رجال الموطأ

تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك

جمع الجوامع ، أو الجامع الكبير

ذيل الجامع الصغير

الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة

الخصائص والمعجزات النبوية

الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج

مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود وغيرها .

---

[١] السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الفقه :

الإمام السيوطي فقيه مشهور ، وألف مجموعة من الكتب القيمة في الفقه، منها:

الأشباه والنظائر في الفقه

اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق

الأزهار الغضة في فقه الروضة

الينبوع في ما زاد على الروضة من الفروع

تشنيف الأسماء بمسائل الإجماع

الجامع في الفرائض

مختصر الأحكام السلطانية للماوردي

الروض الأريض في طهر المحيض

بلغة المحتاج في مناسك الحاج وغيرها .

في اللغة وعلومها:

كان السيوطي عالما من علماء اللغة المبرزين ، ذلك أن العلوم اللغوية أولا وأخيرا تشكل أداة لفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتساعد في تجلية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المشكلات واستنباط الأحكام ، ولذلك ألف أكثر من ١٠٠ كتاب ورسالة في علوم اللغة المختلفة[١] ، من أهم مؤلفاته :

المزهر في اللغة

الأخبار المروية في سبب وضع العربية

الأشباه والنظائر في اللغة

لمعة الإشراق في الاشتقاق

المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب

المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة

تعريف الأعجم بحروف المعجم وغيرها

في النحو والصرف :

الإقتراح في أصول النحو

همع الهوامع في شرح جمع الجوامع

الفريدة في النحو والتصريف والخط وغيرها

---

[١] السيوطي - حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علم المعاني والبيان والبديع:

لقد أسهم السيوطي كذلك إسهاما طيبا في هذه الميادين ، فألف كتبا في علوم البلاغة ، منها:

عقود الجمان في علم المعاني والبيان

النظم البديع في مدح الشفيع

الجمع والتفريق في شرح النظم البديع

فتح الجليل للعبد الذليل ، وهو رسالة تضم ١٢٠ صنفا من أنواع البديع وغيرها من الكتب .

في التاريخ والتراجم والطبقات والرحلات :

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين

الشماريخ في علم التاريخ

تحفة الذاكرة في المنتقي من تاريخ ابن عساكر وغيرها.

الأدب وتاريخه ومباحثه :

وقد اهتم السيوطي إهتماما بالغا بالأدب وتاريخه ، لذلك ألف عددا كبيرا من الكتب في هذا المجال ، منها:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهجة الخاطر ونزهة الناظر

كوكب الروضة

رصف اللآل في وصف الهلال

رشف الزلال من السحر الحلال

المستطرف من أخبار الجواري وغيرها من الكتب المتعلقة بأغراض مختلفة مثل ديوان الشعر والتصوف وتحريم علم المنطق وما إلى ذلك .

٤

أسلوبه

اتبع السيوطي في جل كتاباته الأسلوب الذي يكثر من ايراد المحسنات البديعية ، وقد حرص كثيرا على السجع ، كما مال إلى الفقرات القصيرة التي تتوافق في عدد ألفاظها ، فضلا عن جناس مفرداتها مع تزيينها بكثير من الطباق والاقتباس من القرآن الكريم والحكم والأقوال القديمة وتجميلها بأبيات من الشعر .

وحسبنا دليلا على إلمامه بتلك المحسنات البديعية ، ما كتبه في مقدمة كتابه (همع الهوامع) ، يقول فيه :

« وبعد ، فإن لنا تأليفا في العربية جمع أدناها وأقصاها ، وكتابا لم يغادر من مسائلها صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها ، ومجموعة تشهد لفضله أرباب الفضائل ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجموعا قصرت عنه جموع الأواخر والأوائل ، حشدت فيه ما يقر الأعين ، ويشنق المسامع ، وأوردته مناهل كتب فاض عليها همع الهوامع ، وجمعته من نحو ١٠٠ مصنف فلا غرو أن لقبته (جمع الجوامع) . وقد كنت أريد أن أضع عليه شرحا واسعا كثير النقول ، طويل الذيول ، جامعا للشواهد والتعاليل ، معتنيا بالانتقاد للأدلة والأقاويل ، منبها على الضوابط والقواعد ، والتقاسيم بالمقاصد ، فرأيت الزمان أضيق من ذلك ، ورغبة أهله قليلة فيما هنالك ، مع إلحاح الطلاب عليّ في شرح يرشدهم إلى مقاصده ، ويطلعهم على غرائبه وشوارده ، فنجزت لهم هذه العجالة الكافلة بحل مبانيه ، وتوضيح معانيه ، وتفكيك نظامه ، وتعليل أحكامه »[١] .

نلاحظ في هذا النص القصير ، أن كاتبه قد جمع فيه أنواعا من البديع ، منها السجع ، والكلمات المسجوعة منها : (النقول ، الذيول) و (التعاليل ، الأقاويل) و (القواعد ، المقاصد) و(ذلك ، هناك) و (مقاصده ، شوارده) و (مبانيه ، معانيه) وغيرها.

فمن أمثلة الطباق قوله : (أدناها ، أقصاها) و (صغيرة ، كبيرة) و(الأواخر ، الأوائل) . ومن الأمثلة على الجناس قوله : (أقصاها ، أحصاها) و (مجموعا ، جموعا) و(الهوامع ، الجوامع) وغيرها . كما أنه اقتبس من القرآن الكريم {لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} [٢] عند قوله : «وكتابا لم يغادر من مسائلها صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها».

و إن الشيء البارز كثيرا في أسلوبه هو السجع ، كما لاحظنا في مقدمة رسالته الوردية ، قال :« حدثنا الريان ، عن أبي الورد أبان ، عن بلبل الأغصان ، عن

---

[١] أنظر السيوطي – مقدمة همع الهوامع ، وأنظر الشكعة – جلال الدين السيوطي ، ص ٢١٤ – ٢١٥

[٢] سورة الكهف : ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ناضر الإنسان ، عن كوكب البستان ، عن وابل الهتان »[١] ، وكذلك في مستهل رسالته (رشف الزلال من السحر الحلال) قال : « حكى أبو الدر نفيس بن أبي إدريس »[٢] .

يتضح مما تقدم أن السيوطي مال إلى السجع في بعض مقدمات رسائله ، إلا أنه لم يتقيد بذلك تمام التقيد ، بل يحرر نفسه من قيود السجعة في بعض الأحيان، مثال ذلك ما كتبه في مفتتح رسالته (المكية) يقول :

« حضر أمراء الطيب بين يدي إمام البلاغة خطيب ، فقالوا : أيد الله مولانا وتولاه، وأمده بالمكارم ووالاه »[٣] .

٥

منهج كتابته اللغوية

دراسة اللغة عند السيوطي موصولة الأسباب بالعقيدة الإسلامية، لأنه إلى جانب كونه لغويا نابها وكذلك كان فقيها ، ومفسرا ، ومحدثا معروفا ، فلا غرابة إذن أن تأثر منهج كتاباته اللغوية كثيرا بالقرآن ، ومنهج علماء الحديث ، والأصوليين ، والفقهاء ، وبعبارة أخرى أن علم اللغة عنده مرتبط العلاقة بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والفقه ، والأصول ، وغيرها من العلوم الدينية.

---

[١] السيوطي - مقامات السيوطي ، ص ٤

[٢] المصدر نفسه ، ص٤

[٣] المصدر نفسه ، ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تأثر المنهج اللغوي عند السيوطي بالقرآن الكريم واضح جلي في مؤلفاته ودراساته اللغوية ، ومن بينها كتابه (المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب) ، يتناول الألفاظ الفارسية والتركية والسريانية والعبرية والهندية والحبشية والقبطية والرومية وغيرها ، وقد جاء بها مرتبة على حروف المعجم .

ويَعْمِدُ السيوطي إلى العناية بالألفاظ التي أخذت مفهوما محددا في الإسلام، وكانت ذات معان مختلفة في الجاهلية مثل المؤمن والمسلم ، والكافر والمنافق ، لقد عرفت العرب المؤمن من الإيمان ، والإيمان هو التصديق ، ثم زادت الشريعة الإسلامية التي تعتمد على كتاب الله شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا ، وكذلك الإسلام والمسلم ، فقد جاء المعنى من إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك كان العرب قبل الإسلام لا يعرفون من الكفر إلا الغطاء والستر ، كذلك لم يعرفوا الفسق إلا من قولهم « فسقت الرطبة » إذا خرجت من قشرها ، ثم جاء الشرع الإسلامي فصارت كلمة الفسق من خلاله تعني الإفحاش في الخروج عن طاعة الله[١] .

إلى جانب تأثر منهجه بالقرآن ، فإنه تأثر أيضا بمنهج علماء الحديث في بعض مؤلفاته اللغوية ، لأنه يعد منهج علوم الحديث أدق المناهج التي عرفها العقل الإنساني المثقف حتى وقتنا هذا ، وذلك لما أخذ علماء الحديث به أنفسهم من الدقة المتناهية في التعامل مع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون بين أيدي المؤمنين خالية من التزييف وبريئة من الخطأ.

---

[١] السيوطي - المزهر ، النوع العشرون . وانظر الشكعة - جلال الدين السيوطي ، ص ١٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجري السيوطي على لسان أحمد بن فارس في الفصل الخاص بمعرفة من تقبل روايته ومن ترد ، بقوله : «تؤخذ اللغة سماعا من الرواة الثقاة ذوي الصدق والأمانة ، ويتقي المظنون» ، ويشترط السيوطي نقلا عن الكمال بن الأنباري في لمع الأدلة أن يكون ناقل اللغة عدلا رجلا كان أو امرأة ، حرا كان أو عبدا ، كما يشترط في نقل الحديث ، لأن بها معرفة تفسيره وتأويله ، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله ، وإن لم تكن في الفضيلة من شكله ، وإن كان ناقل اللغة فاسقا لم يقبل نقله ، كذلك يقبل نقل العدل الواحد ولا يشترط أن يوافقه غيره[١] .

وأما تأثره بمنهج الأصوليين فهو واضح في كتابين من أهم كتبه هما (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع) و (الاقتراح في علم أصول النحو) . فأما كتابه همع الهوامع ، فيقول في مقدمته من بينها : « إنه ينحصر في مقدمات و٧ كتب ... وهذا ترتيب بديع لم أسبق إليه ، حذوت فيه حذو كتب الأصول ، وفي جعلها ٧ مناسبات لطيفة مأخوذة من حديث ابن حبان وغيره «إن الله وتر يحب الوتر» ، أما ترى السموات سبعا ، والأيام سبعا ، والطواف سبعا - الحديث[٢] .

وأما كتابه (الاقتراح في أصول النحو) ، فيتضح فيه اقتفاء السيوطي لمنهج الأصوليين أكثر ، ذلك لأن عنوان الكتاب يحمل صراحة لفظ (أصول) ، والمؤلف لم يذكر هذا اللفظ إلا وهو مستحضر في ذهنه (أصول الفقه) الذي اتخذ منه علماء المسلمين الوسيلة العادلة للوصول إلى الاستنباط الأحكام استنباطا دقيقا ، بل إن السيوطي يؤكد هذا التصور في منهجه بعبارة صريحة في مقدمة الكتاب بقوله : «هذا كتاب غريب الوضع ، عجيب الصنع ، لطيف المعنى ، طريف المبنى ، لم تسمح

---

[١] السيوطي - المزهر ج ١ ، ص ١٣٧

[٢] السيوطي - مقدمة همع الهوامع ، ج ١ ، ص ٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قريحة بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، في علم لم أسبق إلى ترتيبه ، ولم أتقدم إلى تهذيبه ، وهو أصول النحو ، الذي هو بالنسبة إلى النحو كأصول الفقه بالنسبة إلى الفقه »[١] .

---

[١] السيوطي - الإقتراح في أصول النحو ، ص ٢١ ، ٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

وإذ طوفت في أثناء البحث على الرسائل الديوانية ، والإخوانية ، والأدبية ، مفهومها وأهم كتابها وسماتها ، فقد توصلت إلى نتائج يمكن أن أجملها في ما يلي :

أن الرسائل بعامة ، والديوانية منها بخاصة قد واكبت الأحداث السياسية التي جرت في هذا العصر ، وأسهمت في تسليط الضوء على جوانب من الحياة الاجتماعية للناس ، فكشفت عن الواقع الاجتماعي المعاش ، بما فيه من أعراف، وتقاليد ، وهموم ، فكانت بمثابة وثيقة تاريخية أنارت الكثير ، وجعلتنا على اطلاع واسع على طبيعة نظام الحكم ، والحياة الدينية والثقافية لعموم الناس ، وكانت كسابقتها في العصر المملوكي الأول لسان حال الأمة ، تحمل همومها ، وتبرز صراعها مع أعدائها .

إن الرسائل بعامة والإخوانية منها بخاصة كانت قليلة العدد ، أو أن ما وصل إلينا منها كان قليلا ، ولكن قلتها لم تقلل من أهميتها ولا من دورها في كشف العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين الكتّاب عبر رسائلهم الإخوانية ، وما شاع بينهم من تراسل ، ومن دعوات إلى مجالس اللهو والتسلية ، أو إلى مجالس التباري في حلبات الأدب واستعراض الملكة الأدبية .

هذه الحقبة قد شهدت ظهور كتاب بارزين اشتهروا بالرسائل وبغير الرسائل من أساليب الإبداع وفنونه ووسائله ، مما جعل هذه الحقبة تستحق الوقوف عندها لدراستها والوقوف عند كتابها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن هذه المرحلة قد شهدت تطورا ملموسا في أساليب الإنشاء ووسائله ، وما يحيط به من بحوث ودراسات تقتضيها صناعة الإنشاء مما أسس لمجالات معرفية موسوعية مختلفة ، إلا أن تلك الأساليب لم تتغير عما كان عليه الأولون في العصر الأول وإن كانت تطورت بما تقتضيه سنة التطور مما يلائم ما غدت عليه الأحوال في هذا العصر.

برز جليا تأثر الكتاب بمختلف أساليبهم بالقرآن الكريم ، وبالتراث العربي القديم ، وما فيه من حكم ، ومواعظ ، وشعر ، وكشف هذا التأثر عن تواصلهم مع موروثهم العربي الإسلامي ، وعدم انقطاعهم عن القديم على الرغم من كل ما يحمله العصر من مظاهر الجدة .

أن البديع والصنعة اللذين ظهرا في رسائل هذا العصر لم يشكلا قيدا على المعنى الذي أراده كتابه ، وإنما جاءا معززين للمعنى باتباع الأسلوب الذي اقتضاه العصر ، إذ لم يكن هذا الأسلوب جافيا ، وإنما كان مألوفا مقبولا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر المخطوطة :

- الحموي ، ابن حجة ، تقي الدين أبو بكر بن علي الأزراري ، (ت ٨٣٧ هـ) :

* تأهيل الغريب ، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، رقم المسلسل : ٦٧٥ (ميكروفيلم) .

* قهوة الإنشاء ، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، رقم المسلسل : ١٤١٣ / ١٥٠٥ (ميكروفيلم) .

- السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ) - مرج الزهور في بدائع الدهور ، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، رقم المسلسل : ٤٧٠ (ميكروفيلم) .

- النواجي ، شمس الدين بن محمد بن حسن بن علي بن عثمان (ت ٨٥٩هـ) - الحجة في سرقات ابن حجة ، مركز الوثائق ومخطوطات بالجامعة الأردنية ، رقم التسلسل : ١٤١٥ (ميكروفيلم) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير ، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري ، (ت ٦٣٧هـ) :

* الوشي المرقوم في حل المنظوم ، تحقيق جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٩م .

* المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي الطبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

* المفتاح المنشا لحديقة الإنشاء ، تحيق هلال ناجي ، جامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٨٣م .

- ابن الأثير ، نجم الدين أحمد بن إسماعيل الشافعي ، الحلبي ، (ت ٨٣٧ هـ) - جوهر الكنز ، تحقيق محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، (ب - ت) .

- ابن إياس ، محمد بن محمد الحنفي ، (ت ٩٣٠هـ) - بدا ئع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

- البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن بردزبة الجعبي ، (ت ٢٥٦هـ) - صحيح البخاري ، ط١ ، ٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- بردي ، ابن تغري ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتاتبكي ، (ت ٨٧٤ هـ) :

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٩م .

* المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

- البطليوسي ، ابن السيد ، أبو محمد عبدالله بن محمد ، (ت ٥٢١ هـ) - الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ، تحقيق مصطفى السقا ، وحامد عبدالمجيد ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨١م .

- ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي ، (ت ٧٧٩ هـ) - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق علي منتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، (ت ٢٧٩هـ) - سنن الترمذي ، ٥م ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة .

- ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد ، (ت ٧٢٨ هـ) - رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٧٦م .

- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٤هـ) - البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجرجاني ، عبدالقاهر ، (ت ٤٧١هـ) - أسرار البلاغة ، تحقيق أحمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

- ابن جعفر ، قدامة ، (ت ٣٣٧ هـ) :

* جواهر الألفاظ ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٣٢م .

* نقد الشعر، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

- الجوهري ، اسماعيل بن حماد ، (ت٣٩٣هـ) - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ج :٤ ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٥٦م .

- الجهشياري ، ابن عبدوس ، أبو عبدالله محمد بن عبدوس الكوفي ، (ت١٣٣هـ) - الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

- ابن أبي الحديد ، عز الدين أبو حامد عبدالحميد بن هبة الله - شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

- الحلبي ، شهاب الدين أبو الثناء محمود ، (ت ٧٢٠ هـ) - حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق اكرم عثمان يوسف ، دار الرشد ، بغداد ، ١٩٨٠م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الحموي ، ابن حجة ، تقي الدين أبو بكر بن علي الأزراري ، (ت ٨٣٧ هـ) :

* ثمرات الأوراق في المحاضرات ، تقديم مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

* خزانة الأدب وغاية الأرب ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٣٠٤هـ

* خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقديم وشرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، بيروت ، ١٩٨٧م .

- الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت ، (ت ٦٢٦ هـ) - معجم البلدان، طبعة دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٨٤م .

- ابن حنبل ، أبو عبدالله أحمد بن محمد ، (ت ٢٤١هـ) - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت ، (ب - ت) .

- الحنبلي ، ابن العماد ، أبو الفلاح عبدالحي ، (ت ١٠٨٩ هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط١ ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، مكتبة ابن كثير دمشق ، بيروت ، ١٩٩١م .

- الخزاعي ، أبو صخر كثير بن عبدالرحمن بن الأسود بن عامر ، (ت ١٠٥ هـ) - ديوان كثير عزة ، شرح قدري مايو ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٥م .

- الخفاجي ، ابن سنان - سر الفصاحة ، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي ، مطبعة محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي ، (ت ٨٠٨ هـ) :

* تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، (ب - ت) .

* مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبدالواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر ، (ت ٦٨١ هـ) - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م .

- ابن دريد ، محمد بن الحسن ، (ت ٩٣٣م) - جمهرة اللغة ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، الدكن ، (ب - ت) .

- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي الحموي ، (ت ٨٠٩هـ) - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين علي ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- الدمشقي ، شمس الدين محمد بن طولون الصالحي ، (ت ٩٥٣هـ) - نقد الطالب لزغل المناصب ، حققه محمد أحمد وهمان ، وخالد محمد وهمان ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٩٢م .

- الذهبي ، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، (ت٧٤٨ هـ) - العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ، ١٩٦٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الرازي ، فخر الدين ، (ت ٦٠٦هـ) - نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز ، ط١ ، تحقيق بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- الزركلي ، خير الدين ، (ت ١٩٢٠هـ) - الأعلام ، طبعة كوستا طومس ، القاهرة ، ٨ ج ، ١٩٥٤م .

- زهير بن أبي سلمى ، (ت ٦٢٧م) - ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠م .

- الزوزني ، أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين ، (ت ٤٨٦ هـ) - شرح المعلقات السبع ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب ، (ت ٧٧١هـ) - معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

- السخاوي ، أبو الخير محمد بن عبدالرحمن ، (٩٠٢هـ) - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة حسام الدين القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ .

- ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي - المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار ، و عبدالستار أحمد فراج ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مجلد : ٣ ، ١٩٥٨م .

- السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، (ت ٩١١هـ) :

* تاريخ الخلفاء، دار الفكر ، بيروت ، (ب - ت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* تاريخ الخلفاء ، ط١ ، تحقيق إبراهيم صالح ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٧م .

* حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مكتبة مصطفى فهمي الكتبي ، القاهرة، ١٩٠٣م .

* مقامات السيوطي الأدبية الطبية ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، مكتبة ابن سنا للنشر والتوزيع ، مصر ، (ب - ت) .

* الاقتراح في أصول النحو ، تحقيق أحمد محمد قاسم ، طبعة القاهرة ، ١٩٧٦م .

- ابن شداد ، عز الدين أبو عبيد الله محمد بن علي (ت٦٨٤ هـ) - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥٣م .

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك ، (ت ٧٦٤ هـ) :

* الوافي بالوفيات ، تحقيق هلموت ريتر ، فيسبادن ، مجلد ١، ١٩٦٢م .

* الوافي بالوفيات ، تحقيق س . ديدرينغ ، فيسبادن ، مجلد ٢ ، ١٩٧٤م .

* الوافي بالوفيات ، تحقيق س . ديدرينغ ، دمشق ، مجلد ٣ ، ١٩٥٣م .

* الوافي بالوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، فيسبادن ، مجلد ٧ ، ١٩٦٩م .

* الوافي بالوفيات ، تحقيق فان اس ، فيسبادن ، مجلد ٩ ، ١٩٧٤م .

* لوعة الشاكي ودمعة الباكي، مطبعة الجوانب بالاستانة ، ١٢٩٢ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* نصرة الثائر على المثل السائر ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧١م .

* نكت الهميان في نكت العميان ، وقف على طبعه الأستاذ أحمد زكي ، المطبعة الجمالية ، مصر ، ١٣٢٩م هـ .

- الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيي ، (ت ٣٣٥هـ) - شرح الصولي لديوان أبي تمام ، دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان ، وزارة الأعلام ، الجمهورية العراقية ، (ب - ت) .

- ابن الصيرفي ، نور الدين علي بن داود الجوهري ، (ت ٩٠٠ هـ) :

* الإشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق عبدالله مخلص ، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ، ١٩٢٤م .

*الأفضليات، تحقيق وليد قصاب وعبدالعزيز مانع ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٨٢م .

* قانون ديوان الرسائل ، مكتبة الواعظ ، مصر ، ١٩٥١م .

* نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

- الضبي ، المفضل بن محمد الضبي ، (ت ١٦٨ هـ) - أمثال العرب ، تحقيق إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الطباخ ، محمد راغب الطباخ ، (ت ١٣٧٠ هـ) - أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط٢ ، تعليق محمد كمال ، دار القلم العربي ، حلب ، ١٩٨٩م .

- والطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ) - تاريخ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م .

- الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين ، (ت ٨٧٣ هـ) - زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ، ١٨٩٤م.

- عبيد بن الأبرص ، (ت ٥٥٤م) - ديوان عبيد بن الأبرص ، تحقيق وشرح حسين نصار ، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

- ابن عربشاه ، أحمد بن محمد بن عبدالله ، (ت ٨٥٤ هـ) - عجائب المقدور في أخبار التيمور ، المطبعة العثمانية ، مصر ، ١٣٠٥ هـ .

- العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ، (ت ٨٥٢ هـ) :

*الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

* أنباء الغمر بأبناء العمر ، ط٢، تحت مراقبة محمد عبدالمعيد خان ، ادار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- العسكري ، أبو هلال ، (ت ٣٩٥هـ) :

* جمهرة الأمثال ، تحقيق أحمد عبدالسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م .

* الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

- العلوي ، محمد أحمد بن طباطبا ، (ت ٣٢٢ هـ) - عيار الشعر، ط١ ، تحقيق عباس عبدالستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢م .

- ابن العماد ، شهاب الدين أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي ، (ت ١٠٨٩هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط١ ، ١٠م ، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه عبدالقادر الأرنؤوط ، حققه وعلق عليه محمود الأرنؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٢هـ .

- العمري ، ابن فضل الله ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيي ، (ت ٧٤٩هـ) :

* التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م .

*التعريف بالمصطلح الشريف ، دراسة وتحقيق سمير الدروبي ، منشورات جامعة مؤتة ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا ، ١٩٩٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق دوروتياكر أفولسكي، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- العيني ، محمود بن أحمد ، (ت ٨٥٥ هـ) - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م.

- أبو الفداء ، إسماعيل بن علي بن محمود ، (ت ٧٣٢هـ) - المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة ، بيروت (ب - ت) .

- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧ هـ) :

* تاريخ الدول والملوك ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرون ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٤٢م .

* تاريخ ابن فرات، تحقيق قسطنطين زريق وآخرون ، منشورات الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٣٦م .

- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي ، (ت ٨٥١ هـ) - تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٧٧م .

- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، (ت ٢٧٦ هـ) :

* الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، (ب - ت) .

* أدب الكاتب ، حققه وعلق عليه محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية، بيروت ، مجلد ١ ، ١٩٨٦م .

- القرشي ، عبدالرحيم بن علي بن إسحق بن شيث ، (ت ٦٢٥هـ) - معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٩٨٨م.

- القزويني ، محمد بن عبدالرحمن جلال الدين ، (ت ٧٣٩هـ) - الإيضاح في علوم البلاغة ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .

- القلقشندي ، أبو العباس ، (ت٨٢١هـ) :

* صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .

* مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار فراج ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٤م .

- القيرواني ، ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) :

* العمدة في محاسن الشعر ونقده ، ط١ ، تحقيق مفيد محمد قميحة ، دار العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

* العمدة في محاسن الشعر ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- الكتبي ، محمد بن شاكر ، (ت ٧٦٤هـ) :

* فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (ب - ت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة داود ، وزارة الثقافة والاعلام .

- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، (ت ٧٧٤هـ) :

* البداية والنهاية ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م .

* البداية والنهاية ، اعتنى ووثقها عبدالرحمن اللادقي و محمد غازي بيضون، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٦م .

- الكلاعي ، أبو القاسم محمد بن عبدالغفور - إحكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ، ١٩٦٦م.

- لقيط بن يعمر الأيادي - ديوان لقيط بن يعمر الأيادي ، حققه وقدمه الدكتور عبدالمعيد خان ، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١م .

- ابن ماجه ، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، (ت ٢٧٥هـ) - سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، (ب - ت) .

- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، (ت ٤٥٠ هـ) - الأحكام السلطانية، تحقيق عبدالرحمن عميرة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، (ت ٢٨٥هـ) - الكامل ، مكتبة المعارف ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المقريزي ، تاج الدين أحمد بن علي المقريزي ، (ت ٨٤٥ هـ) :

* السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩م .

*المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بخطط المقريزي ، ٢م ، دار صادر ، بيروت ، (ب - ت) .

- ابن مماتي ، الأسعد ، (ت ٦٠٦ هـ) - قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال ، مطبعة مصر، القاهرة ، ١٩٤٣م .

- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، (ت٧١١هـ) - لسان العرب ، ط١ ، المطبعة الميرية ، بولاق ، مصر ، ١٣٠٢هـ .

- ابن منقذ ، أسامة ، (ت ٥٨٤هـ) - البديع في نقد الشعر ، تحقيق أحمد بدوي و حامد عبدالمجيد ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، النيسابوري ، (ت ٥١٨هـ) - مجمع الأمثال ، حققه محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٥م .

- النسائي ، أبو عبدالرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي (ت ٣٠٣هـ) - سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ١٩٨٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ، (ت ٧٣٣هـ) - نهاية الارب في فنون الأدب ، تحقيق محمد محمد أمين وآخر ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٩٢م.

- ابن الوردي ، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ، (ت ٧٤٩هـ) - تتمة المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ، ١٩٦٩م .

- الوطواط ، رشيد الدين - حدائق السحر في دقائق الشعر ، تحقيق إبراهيم الشواربي ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

- الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله ، (ت ٧١٦هـ) - الألفاظ الكتابية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٠م .

- الهيثمي ، علي بن أبي بكر - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، مكتبة القدسي، القاهرة ، ١٣٥٣هـ .

- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح - تاريخ اليعقوبي، تقديم وتعليق محمد صادق بحر العلوم ،المكتبة الحيدرية، النجف، المجلد : ٢ ، ١٩٦٤م .

- اليوسفي ، موسى بن محمد ، (ت ٧٥٩هـ) - نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- اليونيني ، قطب الدين أبو الفتح موسي (ت ٧٢٦هـ) - ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد ، الدكن ، ١٩٦١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراجع :

- إبراهيم ، محمود - صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧١م .

- الأبياري ، إبراهيم - نظرات في التاريخ الإسلامي ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٧م .

- أسعد ، بهاء الدين محمد - العسكرية الإسلامية وقادتها العظام ، مكتبة المنار ، عمان ، ١٩٨١م .

- الألوسي ، محمود شكري - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، القاهرة ، ١٩٢٤م .

- الأيوبي ، ياسين - آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٩٥م .

- الباشا ، حسن - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

- باشا ، عمر موسى :

* الأدب في بلاد الشام ، دار الفكر الحديث ، دمشق ، ١٩٦٧م.

* الأدب في بلاد الشام ، المكتبة العباسية ، دمشق ، ١٩٧٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٨٩م .

- البخيت ، محمد عدنان - مملكة الكرك في العهد المملوكي ، بدون المطبعة ، ط: ١ ، عمان ، ١٩٧٦م .

- بدوي ، أحمد أحمد - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

- البستاني ، صبحي - الصورة الفنية في الكتابة الشعرية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- البعلبكي ، إبراهيم - تاريخ الفن ، وجوده - الفن واللغة - النحت والبارز ، دار الصداقة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥م .

- البقلي ، محمد قنديل - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (ب - ت) .

- التونجي ، محمد - المعجم المفصل في الأدب ، دار الكتب العلمية ، لبنان، بيروت ، مجلد: ٢ ، ١٩٩٣م .

- الحسيني الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى - الكليات ، معجم المصطلحات والفروق اللغوية ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حمادة ، محمد ماهر :

* وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩م .

* الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ٦٥٦ - ٩٢٢هـ ، دراسة ونصوص ، وسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- حمزة ، عبدالطيف - أدب الحروب الصليبية ، ط ٢ ، دار الفكر ، القاهرة .

- الخالدي ، اسماعيل عبدالعزيز - العالم الإسلامي والغزو المغولي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٤م .

- خفاجي ، محمد عبدالمنعم - الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث ، ط١؛ دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠م .

- الربداوي ، محمود - ابن حجة الحموي شاعرا وناقدا ، دار قتيبة، دمشق ، ١٩٨٢م .

- الرشدي ، سالم - محمد الفاتح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩م .

- رضا ، الشيخ أحمد - معجم متن اللغة ، موسوعة لغوية حديثة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٠م .

- الركابي ، جودت :

*الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار الفكر، دمشق ، ١٩٨٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

*الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٩م .

- أبو زيد ، علي إبراهيم - رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩١م .

- زيدان ، جرجي - تاريخ آداب اللغة العربية ، راجعها وعلق عليها شوقي ضيف، دار الهلال ، (ب - ت) .

- سلام ، محمد زغلول :

* الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١م .

* تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريين ، دار المعارف ، مصر ، (ب - ت) .

- سليم ، محمود رزق - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٩٦٢م .

- الشايب ، أحمد - الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

- الشكعة ، مصطفى :

* الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، دار الأحد ، بيروت ، ١٩٨٣م .

*جلال الدين السيوطي ، مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٤م .

- الصياد ، فؤاد عبدالمعطي - المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيروت، ١٩٨٠م .

- ضيف ، شوقي :

* البحث الأدبي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م .

* الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م .

- الطراونة ، طه ثلجي - مملكة صفد في عهد المماليك ، ط١ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢م .

- طرخان ، إبراهيم علي - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

- عاشور ، سعيد :

* المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٢م.

*مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت، (ب - ت) .

- عباس ، إحسان - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- عبدالتواب ، عبدالرحمن محمد - قايتباي المحمودي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبدالمهدي ، عبدالجليل - بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير، عمان ، ١٩٨٩م .

- عتيق ، عبدالعزيز - علم المعاني والبيان والبديع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (ب - ت) .

- عدوان ، أحمد أحمد - العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٩٨٥ م .

- العريني ، السيد الباز - المماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧م .

- عصفور ، جابر - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار التنوير، بيروت ، ١٩٨٣م .

- فؤاد ، نعمات أحمد - النيل في الأدب المصري ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م .

- الفقي ، محمد كامل - الأدب العربي في العصر المملوكي ، ط٣ ، دار الموقف العربي للصحافة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

- الفندي ، محمد ثابت وآخرون ، (نقلوها إلى اللغة العربية) - دائرة المعارف الإسلامية ، خوارزم - خوست ، ١٩٣٣م .

- قبش ، أحمد - المعجم الفيصل ، معجم لغة عربية أواخر ، مطابع الجهاد ، دمشق ، ١٩٨٥م .

- قلقيلة ، عبده عبدالعزيز- النقد الأدبي في العصر المملوكي ، مكتبة الإنجلو - مصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- القيسي . فايز عبدالنبي فلاح - ادب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٩م .

- الكتاني ، عبدالحي بن عبدالكريم - التراتيب الإدارية ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- كحالة ، عمر رضا - معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- مبارك ، زكي - النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٤م .

- محمد بن الخوجة - عصر المماليك : الترسل وابن عبدالظاهر ، ط١ ، تونس ، ١٩٥٦م .

- مصطفى ، إبراهيم ، و الزيات ، أحمد حسن ، و عبدالقادر ، حامد ، والنجار ، محمد علي - المعجم الوسيط ،ط٢ ، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة، استانبول ، تركية ، ١٩٧٢م .

- مطلوب ، أحمد :

* معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٨٦م .

* معجم النقد العربي القديم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩م .

- المقداد ، محمد - تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية ،ط١، دار الفكر المعاصر ، بيروت - دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ١٩٩٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المقدسي ، أنيس - تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢م .

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - المعالم الأثرية في البلاد العربية، الشركة المصرية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

- موسى ، أحمد - الصبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكاتب العربي، القاهرة ، ١٩٦٩م .

- ناصر ، حياة - العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري - دراسة وثائقية ، الكويت ، ١٩٨٠م .

- ناظم رشيد - في أدب العصور المتأخرة ، منشورات مكتبة بسام ، موصل ، العراق ، ١٩٨٥م .

- ناعسة ، حسني - الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨م .

- النخيلي ، درويش - السفن الإسلامية على حروف المعجم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩م .

- والتر . ج . ميشيل - لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد وفيق ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

- الهاشمي ، أحمد - جواهر الادب في ادبيات وانشاء لغة العرب ، ط : ٢٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ياغي ، هاشم - معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة ، الفجر للطباعة والنشر ، ١٩٩٠م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسائل الجامعية :

- جبر ، خالد عبدالرؤوف عثمان - الرسالة الفنية في العصر المملوكي الأول بمصر والشام ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٢م .

- الحمامرة ، ذكريات سليمان موسى - صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٦م .

المجلات :

- فليح ، مناهل فخر الدين - مجلة آداب الرافدين ، ع ١٠ ، سنة ١٩٨٩ م ، تصدر عن جامعة الموصل (التعليم في ظل دولة المماليك) .

٤٩٣٩٧٣

- السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، (ت ٩١١هـ) - السماح في أخبار الرماح ، تحقيق أنور أبو سويلم و ماجد الجعافرة ، (المجلة ع ٣٧ ١٩٨٩م)، منشورات مجمع اللغة العربية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Literary Epistles are dealt with in the third chapter, they include huntings and description of catastrophes, jest and jeers, braggings and debates.

The fourth chapter is allocated for artistic study and discusses the structure and style of epistle in addition to the literary picture which the authors of such era have endeavored to drow in order to manifest their literary talent and faculty.

In the fifth chapter I cite in detail the most outstanding writers in the second Mamluki era, namely Abu Al-Abbas Al-Qalaqashandi, Ibnu Hijja Al-Hamawi, Shams El-Din Al-Nawaji and Jalal Al-Din Al-Siyouti.

I have concluded the paper by focusing on the most important results and findings which I have been able to reach in this regard.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

EPISTLES IN THE SECOND MEMLUKI ERA IN EGYPT AND SYRIA (784 - 923 A.H.) (1382 - 1517 A.D.)

Presented by :

IDRIS BIN ABDULLAH

Supervised by :

PROF. ABDUL JALIL ABDUL MUHDI

This study attempts to take into consideration one of the Arab prose arts from the beginning of the second Memluki rule of Egypt and Syria till the end of the era, which was extended to about one hundred and thirty five years, the epistle art noticed a great development in its content and style.

The study comprises a preface, an introduction which talking about meaning of epistles in general sense, as well as classifies the epistles into three categories: the Diwani (official), the Ekhwani (friendly), and the purely-literary, five chapters and a conclution.

The first chapter discusses the Diwani Epistles and explains the meaning of the composition and relevant issues in addition to the Letters that have highlighted the political, relegious, social and cultural life in the subject era.

The second chapter is devoted to the Ekhwani (Brethren) Epistles. Its topics cover the issues of congratulations, condolenses, gratifications, reprimands, apologises and gentle centures.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit